بين جدران القصور

قصص تاريخية

تأليف

حبيب جاماتي

الكتاب: بين جدران القصور (قصص تاريخية)
الكاتب: حبيب جاماتي
الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
APA
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

جاماتي ، حبيب
بين جدران القصور/ حبيب جاماتي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٦٦ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٠ – ٩٢ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٧٦٢ / ٢٠٢٠

بين جدران القصور

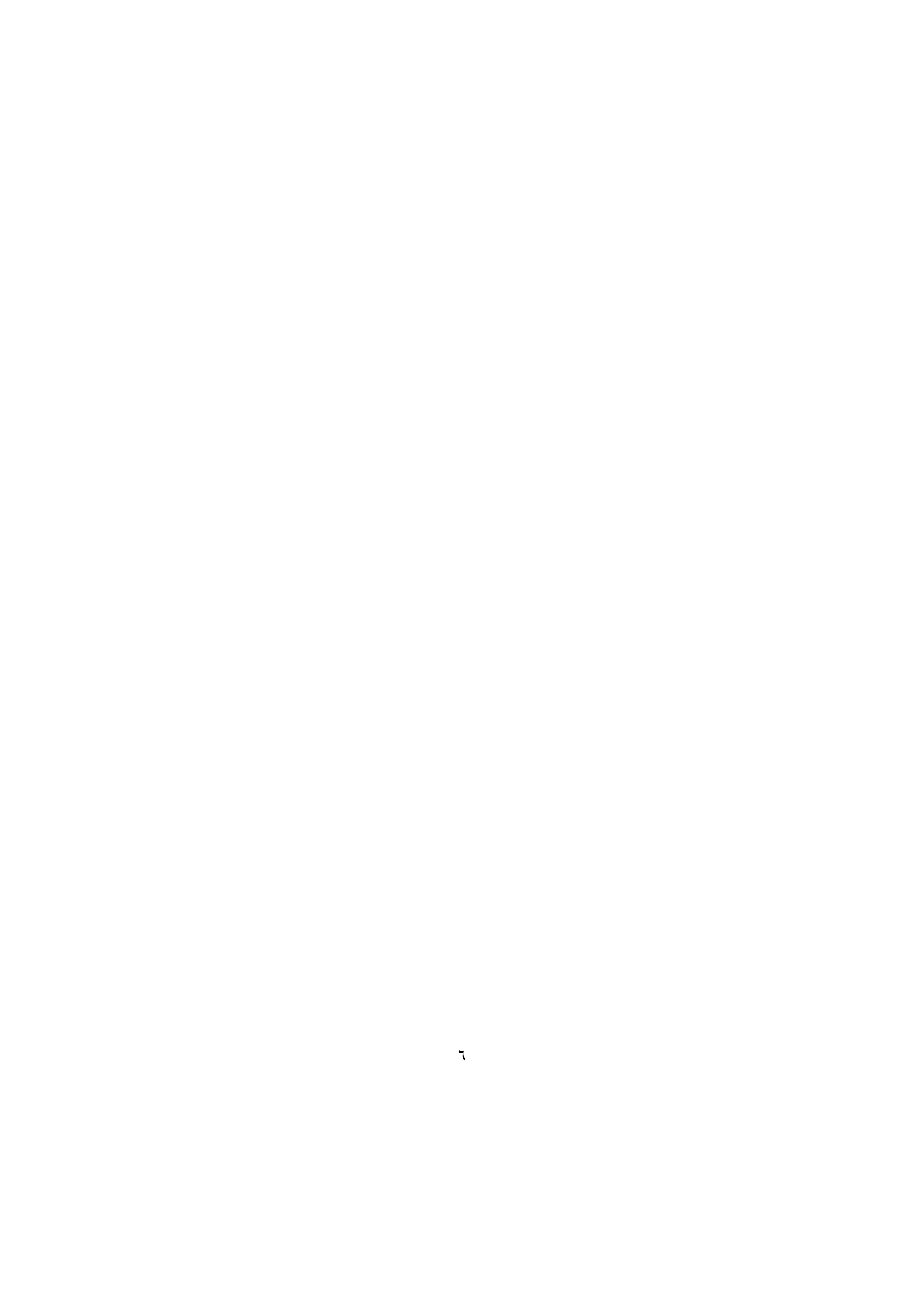




الإهداء

إلى كل مساهم بالقول أو بالكتابة، باللسان أو بالقلم، في رفع طرف من الستار عما جرى في مختلف العصور، خلف جدران القصور، من مؤامرات للخير أو للشر، ومن حسنات أو سيئات، ومن مساع صالحة أو طالحة، أهدي هذه المجموعة من الأقاصيص التي وقعت حوادثها على هامش التاريخ، وراء تلك الجدران وفى قاعات تلك القصور، اعترافا مني بفضل من استعنت بأقوالهم أو كتاباتهم، ومساهمة متواضعة في استكمال ما دونوه وسجلوه!

المؤلف



تصدير

منذ بضعة أعوام، نشرت مجموعة من "خفايا القصور" في قالب قصصي، من بين الأقاصيص التي دأبت على نشرها بعنوان شامل هو: "تاريخ ما أهمله التاريخ" .

وفى المجموعة التي أضعها هنا بين أيدي القراء، بعض تلك "الخفايا" التي تناولتها بالمراجعة والتنقيح، وأضفت إليها أقاصيص أخرى لم تنشر من قبل بعد أن استبعدت ما لم أر فائدة من إعادة نشره.

وهذه المجموعة من الخفايا التي جعلت عنوانها "بين جدران القصور" تضم تسع عشرة أقصوصة تصف حوادث صغيرة وقعت خلال أحداث كبيرة، أو تصف أحداثا كبيرة جاءت نتيجة حوادث صغيرة، كلها جرت وقائعها في داخل القصور، خاصة في خدور الحريم، ولعبت فيها المرأة دورا كبيرا أو صغيرا . فقلما خلا حادث أيا كانت أهميته، أو حدث أيا كان مداه، من أثر للمرأة، إما لأنها تدخلت فيه تدخلا مباشرا، مدفوعة بعامل الطمع أو الحب أو الحقد، وإما لأن الرجال انقادوا لها مستضعفين، أو اتخذوها أداة لبلوغ أهدافهم وتحقيق مآربهم، وإما لأنهم بسببها قد ضلوا السبيل وحادوا عن جادة الصواب، أو عادوا إلى صوابهم وسواء السبيل، بعد ضلال أو تضليل!

وفى كل حادث صغير، وفى كل حدث كبير، درس وعبرة لمن يريد أن يدرس ويعتبر!

وفي مطالعة هذه الأقاصيص، على كل حال، تسلية وفائدة.

حبيب جاماتي



بأمر الحاكم بأمره

كان الحبيبان يتناجيان على صخور الشاطئ بالإسكندرية، وتحت صخور الشاطئ دفنا!

كانت مصر في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للهجرة، أي أوائل القرن الحادي عشر للميلاد، تئن تحت نير من الظلم الأصم، وذلك في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، أو الحاكم بأمره كما كان يلقب نفسه. ولد الحاكم بالقاهرة في سنة ٣٧٥ هجرية، الموافقة لسنة ٩٨٥ للميلاد، وهو سادس الخلفاء الفاطميين ، وأول واحد منهم رأى النور في مصر التي فتحها القائد جوهر الصقلي، وفى عهد جده المعز لدين الله، فقدم إليها من القيروان، وحل بمدينة "القاهرة المعزية" التي أنشأها له القائد الفاتح في ثلاثة أعوام من ٣٥٩ إلى ٣٦٣ للهجرة أي من ٩٧٠ إلى ٩٧٣ للميلاد، وقد بويع الحاكم بأمر الله بالخلافة بعد وفاة أبيه العزيز في سنة ٣٨٦ للهجرة، الموافقة لسنة ٩٩٦ للميلاد قبل أن يتم الثانية عشرة من العمر. وقد حكم مصر نحو ربع قرن، في الوقت الذي كان يتولى فيه العرش في بغداد الرابع والعشرون من الخلفاء العباسيين، القادر بالله!

***

كان في مدينة الإسكندرية، في ذلك العهد رجل رث الحال معدم المال يعيش من زراعته في كوخ حقير، بعيدا عن ضوضاء الناس وشرورهم، ليس له من قريب أو حبيب إلا ابنته، وكانت الفتاة "عمرة" بارعة الجمال، ممشوقة القوام، تناهز من العمر أربعة عشر ربيعا، حبسها أبوها في كوخه، ومنعها الهواء قبل العيون، لا ظلما لها أو استبدادا منه بها، ولكنه خشي عليها صولة الحاكم بأمر الله!

على أن أبا عمرة كان يأذن لفتاته أن تخرج في أوقات من النهار معلومة إلى شاطئ البحر، فتبثه أحلام صباها، وتحمل أمواجه مكنونات قلبها، ونفث صدرها، توجهها إلى حبيب هي أجهل به من البحر!

ولقد طالما مزجت عمرة دمع عينها الرائق العذب بأمواه ذلك العجاج الهائج الملح، لذكرى والدتها الخالية، وشقيقها الثاوي، وقد بكتهما طفلة، وعهدتهما صغيرة، فانطبعت في ذاكرتها صورتاهما، وخير الذكريات ما نما مع العمر، وانطبع في النفس الفنية. وكان أبوها إذا عاد من حقله يوافيها إلى منتزهها بصنارتين لكل منهما واحدة، فيصطادان الأسماك على الشاطئ، ويعودان بما سنح من الصيد فتطبخه له فتاته. وكان الوالد يحذر عمرة شر الرجال بل العيون الرقيبة، إشفاقا منه عليها، وكان فيما قاله لها ذات يوم:

– أي عمرة المحبوبة، إنما عيون الرجال شر من صنارة الصياد ينصبها ساقطو النفوس منهم للفتيات البريئات، فيعلقن بها كما تعلق الأسماك الصغيرة بصنارتك، فحذار يا بنية شرهم إنه لعظيم!

دامت الحال على هذا المنوال مدة من الزمن، أمن فيها أبو عمرة المسكين شر الحاكم وضربات القدر، ونسي أن الكدر يجئ به صفو الليالي، وظن نفسه بعيدا عن جواسيس الحاكم وزبانيته. وما درى أنهم قد رصدوا فتاته، وأن أمرها وصفتها قد بلغا الحاكم بأمره، فاشتاق إلى رؤيتها، وعقد النية على انتزاعها من يد أبيها

***

أرسل الحاكم رسله يطلب الابنة من أبيها، وما كان ليجول في خلده أن فلاحا مسكينا يجرؤ على رد طلبه وعصيان أمره، ولكن حب الوالد إذا أحس بخطر يهدد من يحب، لا يخيفه ملك جبار ولا سلطان ظالم. رفض الأب أن يسلم كنزه، وأن يحفر قبر ابنته بيده، فرد الرسل خائبين، وعمد في ليلة ليلاء إلى الهرب فرارا من وجه الظالم، وظل يضرب في البلاد هائما ولهان كطير الحمام أحس الباشق يهدد فراخه فسالت نفسه هلعا وطارت شعاعا!.

ولكن أبا عمرة المسكين، كان أضعف حولا وأقصر باعا من أن يفلت من يد ذلك الجبار العنيد، الذي كان يملأ النفوس رعبا وهولا، والذي كانت عيونه وأرصاده في طول البلاد وعرضها خرج الأب مع ابنته

ذات يوم، وبعد أن طافا خارج المدينة، جلسا على مقربة من ذلك العمود الذي نصبه الرومانيون تخليدا لذكرى مرورهم في مصر وهناك داهمهما الجند وألقي القبض عليهما، فأعيد الشيخ إلى كوخه حيث قضي أسفا ولوعة، واقتيدت الابنة إلى قصر الحاكم حيث فتك الجزار القاسي بالذبيح الطاهر، وألقي به في زاوية من زوايا القصر، فقضت الابنة المسكينة أياما وليالي، تبكي كل ما يبكي عليه في هذه الحياة من شرف ضائع، وحرية مفقودة، وعيش منغص، ووالد لم تدر أميت هو فتبكيه أم حي فتعلل النفس بلقائه إلى أن ترك الدمع في خديها أثرا وذهبت من ذلك الوجه الصبيح بهجته..

وكان على باب القصر الخارجي حارس أمين قد اصطفاه الحاكم للسهر على ضحاياه يدعى "قاسم" فكان هذا الحارس إذا ما أظلم الليل وقف ديدبانا يجول تحت شرفات القصر، يرقب المارة والناظرين، حتى إذا خان القدر أحدهم فألقى نظرة على شرفة من شرفات القصر، أخمد قاسم أنفاسه لساعته!

وكان قاسم منذ قيد الذبيح البرئ إلى قصر الحاكم يسمع طوال الليالي، وهو قائم على حراسته، أنينا يخرج من غرفة عمرة، فيقطع نياط قلبه، ويترك أثرا أليما في نفسه!

وكان يسمع نداءها لوالدها، ومناجاتها لروح والدتها، فيود لو أمكنه أن ينقض على ذلك القصر فيهدمه بيديه حجرا حجرا، لينقذ تلك البائسة التي لم يرها، ولكنه درى بها ضحية من ضحايا حاكمه الظالم..

بدأ قاسم بعاطفة هي شفقة ورأفة، وما لبثت تلك العاطفة أن تحولت إلى حب فوجد فغرام فهيام، أنساه واجبه وأمانته لسيده، وأطار لبه وعقله، فأمسى وأصبح يتحين الفرص ويفكر في أحبولة أو دسيسة يتمكن بها من إنقاذ تلك الفتاة ولو يبذل دمه وروحه.

***

وكان للحاكم شقيقة يعرفها التاريخ باسم "ست الملك" ولكنها أعجوبة من عجائب السماء، لم تكن على شيء من قسوة أخيها وظلمه وفظاظته. وكانت ست الملك كثيرا ما تختلف إلى حرم أخيها تواسي هذه البائسة وتسلي تلك، فتلقي في ظلمات ذلك الجحيم بريقا من نور السماء. قدمت زائرة كعادتها، وخلت بعمرة المسكينة التعسة، فهالها ما رأته في وجهها من أثر الحزن العميق والشقاء الذي لا حد له ولا قرار. قصت عليها الفتاة قصتها والعبرات تخنقها، والزفرات تشهد لسانها بأليم ما تقاسيه من جوى ولوعة وأسى، فرقت ست الملك لها ولم تغادرها الا بعد أن عقدت العزيمة على تسهيل سبيل الفرار لها وبعد أن وعدتها بذلك تركتها مؤملة راجية.

وفكرت ست الملك في الطريقة المثلى لإنقاذ فتاتها، فلم تر سبيلا آمنا وأضمن للنجاح من أن ترشو الحارس الموكل بحراسة القصر ليلا. دعت إليها قاسما، وأفضت إليه بما يجول في صدرها، بعد أن بذلت له الوعود الخلابة، فارتمى قاسم على قدمي مولاته يسكب دموع الفرح والغبطة، وأفضى إليها بما علق في نفسه من حب الفتاة حبا لحمته الشفقة وسداه الهيام!

وكان الحاكم بأمر الله يكره أخته ست الملك ولا يتردد في الكيد لها، وقد اتهمها يوما بتهمة شنعاء أوقدت في صدرها نار البغض، وأثارت في نفسها رغبة الانتقام، فسعت إليه بمكر ودهاء، وبدأت تنفذ خطتها بمساعدة ضحايا أخيها على الإفلات من يده، وكان ذلك من حسن حظ عمرة التي استفادت من العداء القائم بين الأخت وأخيها!

فبعد أن رسمت ست الملك خطة الفرار، وأطلعت الحارس عليها، وأعدت لها العدة، انسلت في ليلة ظلماء إلى غرفة عمرة وأدلت بها من النافذة إلى الأرض، على سلم كان قاسم قد حاكه بيده، فتلقاها الحارس بين ذراعيه، واحتملها جاريا في ظلام ذلك الليل إلى قارب كان ينتظرهما على النيل! وهكذا انتقمت الأخت من أخيها، وفاز الحبيب بحبيبته، وأفلتت عمرة من الأسر!

***

بلغ قاسم وعمرة الإسكندرية عملا بإرادة الفتاة التي كانت تذوب شوقا إلى لقاء أبيها غير حاسبة حسابا لما ينتظرها به القدر. بلغا الكوخ فإذا به قد تداعت جدرانه، وإذا به قد أقفر من ساكنيه! فبكت عمرة بكاء مرا وسقت قبر أبيها بما تبقى من الدموع في عينيها الداميتين، وانصرفت بما تبقى في قلبها الحزين من العواطف إلى حب منقذها قاسم، ونامت آمنة شر ما يخبئه لها القدر، وظنت نفسها البريئة أن السماء قد رأفت بها، وأنها قد اكتفت بما نالها من شقاء وبؤس وعذاب أليم!

ثارت ثائرة الحاكم بأمر الله، فأرغى وأزبد، وبدأ يصب جام غضبه ونقمته على حراسه وجواريه؛ وبث رسله وجنده يبحثون عن الفارين، واعدا متوعدا!

وخافت ست الملك أن يلحق بقاسم وعمرة أذى، وأن تعاد الفتاة إلى سجنها، ويحكم على حبيبها بالموت شر ميتة، فأرسلت أيضا رسلها وجواسيسها للبحث عنهما، وإعداد العدة لفرارهما إلى بعيد، فكان نضالا عنيفا بين الأخ والأخت: الحاكم يسعى إلى إهلاك نفسين، وأخت الحاكم تسعى إلى إنقاذهما!

***

جلس الحبيبان على صخرة من صخور شاطئ البحر في الإسكندرية، حيث أقامت اليوم يد العمارة فنادق ومنازل ومصانع،

يتبادلان حبهما النامي، ويتساقيان أحاديثه، وأمامهما البحر يوحي إليهما أنهما حران طليقان، ويوسوس لقلبيهما أن يد الظلم بعيدة عن أن تنالهما. شكرا بنشوة الحب فلم يفطنا إلى الخطر الداهم، ولم يفكرا في أن السعادة لا تدوم الا إذا أحاط بها سياج من الحذر والتكتم. أجل، هي ساعة نسيا فيها أنهما مهدور دمهما، وأن لهما عدوا ارتجف لذكر اسمه وادي النيل وما دونه من البلاد، وأن ذلك العدو العنيد لن يهدأ له بال إلا بعد أن يتم له الاقتصاص منهما والقضاء على حنائهما!

كان الحبيبان على شاطئ البحر، وإذا بجند الحاكم قد أحاطوا بهما إحاطة السوار بالمعصم، وما هي الا لحظة حتى أثقلا بالقيود والأغلال، وجرا إلى قبر مظلم هو سجن من سجون تلك الأيام السود. وزفت إلى الحاكم أبي العزيز بشرى القبض على الفارين المذنبين، وقص عليه أنهما كانا يتشاكيان الحب على صخرة على شاطئ البحر، فضحك ضحكة نمت عما في نفسه من حفيظة ومكر، ثم أومأ إلى رسله قائلا:

– قولوا للجند وللجلادين ألا يمسوا الحبيبين بأذى، وأن يقودوهما حرين طليقين إلى حيث كانا يتشاكيان ويتداعبان، ثم يحفروا لهما حفيرة ويدفنوهما حيين!

***

إذا قصدت أيها القارئ إلى مدينة الإسكندرية، فسر حتى الصخور المشرفة على مدخل الميناء الشرقي، وسل خبيرا أن يهديك إلى محلة "طابية السلسلة"، وإذا بلغت ذلك المكان، فاعلم أن أسس ما تراه من الأبنية مشيدا

مكان تلك الطابية، قائمة على بقايا الحبيبين اللذين ذهبت بهما فتيين يد الظلم، ظلم الحاكم الفاطمي، أو الحاكم بأمر الله، أو الحاكم بأمره.

وقد تآمرت ست الملك على أخيها مع أعدائه الكثيرين، فعهدت إلى صنيعتها ابن دواس بقتله، فطلع عليه بشرذمة من رجاله وأعوانه، وقتلوه شر قتلة، وأخفوا جثته في القرافة، وكان ذلك سنة ٤١١ للهجرة الموافقة لسنة ١٠٢٠ للميلاد.

عرشان وامرأتـان

سلكت المرأة لبلوغ أهدافها جميع الطرق، ولكنها ماتت كئيبة قبل أن تبلغ منها هدفاً واحداً!

في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد، والخامس للهجرة، كان الفاطميون يحكمون مصر، ويدعى لخلفائهم في مساجدها، على حين كان الخلفاء العباسيون منكمشين في بغداد، مستسلمين للخمول، تاركين تصريف شئون الرعية في مختلف الأقاليم والإمارات لمن يضع اليد عليها من الغزاة وذوى الجرأة والمطامع، وكان الأمراء السلجوقيون الأتراك قد أنشئوا لأنفسهم ملكاً من أشلاء الإمبراطورية العربية الأولى، ولما مات "ألب أرسلان" خلفه ابنه "ملك شاه" في سنة ٤٦٤ للهجرة، الموافقة لسنة ١٧٠٢ للميلاد، فبسط نفوذه حتى عم بلاد فارس والعراق وسورية والحجاز وأطراف اليمن، وكان ساعده الأيمن وزيره "نظام الملك" الداهية السياسي والإداري والعسكري الذي يدين له السلجوقيون بمعظم ما بلغوه من مجد وسؤدد.

لكن "نظام الملك" قتل في سنة ١٩٠٢ للميلاد الموافقة لسنة ٤٨٥ للهجرة؛ فكان مصرعه كارثة على الدولة السلجوقية، وشعر "ملك شاه" بالفراغ الذي تركه الوزير النابغة بعد موته، فتشاور مع معاونيه ورفاقه

المقربين، فيما يجب أن يقوموا به من أعمال لتحقيق الأهداف التي كان "نظام الملك" يسعى إليها لإعلاء شأن الدولة وتوسيع حدودها. وكان ممن استشارهم السلطان في الأمر، زوجته وشريكته في السراء والضراء "تركان خاتون" البعيد لما كانت آراؤها نبراساً يهتدي به السلطان ووزراؤه، ومن بينهم "نظام الملك" نفسه، حتى لقد كانت هي التي أوعزت إليه قبل وفاته ببضعة أعوام، بالسير على خطة جديدة في السياسة والحرب، ترمي إلى إنشاء "إمبراطورية عربية تركية" تضم بين دفتيها جميع البلدان الخاضعة لحكام مسلمين، من حدود الهند إلى المغرب الأقصى، فلم يلبث أن بدأ يمهد السبيل لتحقيق هذا الحلم، لأنه كان يعتقد أن إنشاء إمبراطورية جديدة على غرار الإمبراطورية الإسلامية الأولى، عمل من الضخامة بحيث لا يقوى على القيام به، أو حتى مجرد الإقدام عليه، وزير واحد، أو سلطان واحد!

فلما مات "نظام الملك" قرر "ملك شاه" أن يواصل بنفسه السعي للغرض الأسمى والهدف البعيد، وشجعه على ذلك تحريض زوجته "تركان خاتون" وإلحاحها عليه بألا يترك يوماً واحداً يضيع سدى، وكانت تقول له في معرض تذكيره بما صنعاه معاً بالأمس وما بقي عليهما أن يصنعاه معاً في الغد القريب:

- لقد طالما عللنا النفس بأن نجعل من بغداد والمأمون دولة عربية تركية، كما فعل العباسيون الأولون، عندما جعلوا منها عاصمة لإمبراطورية عربية فارسية؛ فما علينا إلا أن ننسج على منوال الرشيد

والمأمون. ولكن العنصر التركي يجب أن يحل محل العنصر الفارسي، وهذا هو الفارق بين إمبراطورية تداعت أركانها، وإمبراطورية نعمل نحن الآن لإقامتها على دعائم جديدة.

- إنني متفق معك يا "تركان" على هذا الذي تقولين، ولكن التنفيذ أصعب بكثير من رسم الخطوط، فهناك عقبات لا تفطنين إليها.

- إنني أفطن إلى كل شيء، وأقدر كل شيء، وأدرك كل شيء، والذي صنعه الفرس من قبل لا نعجز نحن الترك عن صنعه من بعد، لقد نجحنا في حمل الخليفة "المهتدي بالله" على طلب ابنتنا زوجة له. وها هي ذي تحتل في قصر الخليفة المكانة الأولى بين النساء. ومما ضاعف من شأن هو حفيدي. إن ابنتنا الحبيبة وضعت مولوداً ذكراً هو حفيدك وحفيدي. وقد طلب إلينا الخليفة أن نختار له الاسم الذي نريده فاخترنا له اسم "جعفر"، وجعفر الآن محط آمالنا وموضع اهتمامنا؛ فهو الذي سيتحقق على يديه الحلم الذي يداعبنا في الليل والنهار على السواء!

- كيف هذا؟

- نعم؛ فجعفر سيخلف أباه على عرش بغزيرتي..كون إمام المسلمين وأمير المؤمنين في مستقبل الأيام!

– ولكنه ليس كبير أبناء الخليفة يا عزيزتي. وللمهتدي أبناء آخرون غيره، من نساء أخريات، وكبيرهم هو أبو العباس أحمد، وهو الذي أعده المهتدي ليرث عنه العرش والخلافة!

– هذا ما يجب أن نحول دون وقوعه، وهذا ما يجب أن يفهمه المهتدي من الآن؛ فإما أن يوصي بالملك والخلافة لولده وحفيدنا جعفر، وإما أن يدرك أن حياته في خطر؛ ففي وسعنا ونحن أصحاب السلطة والقوة في عاصمته نفسها، أن نملي عليه إرادتنا بالحسنى أو بالإكراه! وسأذهب إليه في اللحظة، لأفاتحه في هذا الأمر، وكن واثقاً أنني سأحمله على قبول ما نريد، راضياً أو مرغماً...

سكت "ملك شاه" لحظة، ثم قال لزوجته:

– افعلي ما يحلو لك، فإنني أعلم أنك إذا ما عولت على أمر فلن يجدي معك النصح أو الإرشاد، وكل ما أرجوه هو أن يوفقك الله فيما أنت مقبلة عليه..

كان ((ملك شاه)) ضعيف الإرادة أمام زوجته ((تركان خاتون)) العتيدة العاتية، وكان يذعن لمشيئتها كلما اختلف معها في رأي، معتقداً أن في اذعانه لها الخير كل الخير له ولها وللأسرة المالكة، لأنها لم تقدم على أمر إلا أدركته، ولم تستهدف غرضاً إلا بلغته، إما بالحق وأما بالباطل! ثم ماذا كانت تريد تركان خاتون؟ أفلا ترمي إلى إنشاء إمبراطورية واسعة يجلس "ملك شاه" على عرشها؟ أفلا تفكر في أن يرث الخلافة

العباسية حفيدها الذي يجري في عروقه دم تركي هو دم ابنتها، حتى إذا ما انتهى الملك إلى ذلك الحفيد "جعفر بن المهتدي" عمد إلى تحويل الخلافة والعرش والسلطان في آن واحد معاً من الأيدي العربية والفارسية إلى الأيدي التركية، لكي يتمكن العنصر التركي مع الوقت من السيطرة على بلاد المسلمين من الشرق إلى الغرب؟ أن هذه الخطة تروق لملك شاه، وهو يرى فيها تحقيقاً لمطامعه التي لا تختلف عن مطامع زوجته، وتثبيتاً لقدم أسرته، وتقوية لمركزها، ووسيلة لجعلها ترتفع إلى أوج المجد والسؤدد.

***

وذهبت "تركان خاتون" إلى بغداد في موكب الخليفة، كانت "ملك شاه" في انتظار عودتها في عاصمة ملكة أصفهان ببلاد فارس، فلما وصلتها قوبلت بما يليق بمقام "حماة" الخليفة، وأم زوجته المفضلة، وحلت ضيفة على ابنتها في قصر "المهتدي"، ولم تكن "أم جعفر" عالمة بما يختلج في صدر أمها وصدر أبيها من آمال وأمان وأحلام. ولم تفكر وهي الزوجة الأمينة والأم الحنون، في أن هذا الزواج الذي أراده "ملك شاه" وإرادته "تركان خان"، كان ينطوي على خطة مدبرة، بعيدة المدى، تتناول مصير الدولة ومصير العرش ومصير الخلافة!

ولكن الأم جاءت تطلعها على كل شيء، وتفتح عينيها على الحقيقة، وتدفعها إلى التعاون معها في تنفيذ تلك الخطة بعد أن أصبحت

أماً للطفل الذي يريده جده وتريده جدته ملكاً وسلطاناً وخليفة في آن واحد؛ فانقادت الابنة لإرادة أمها الصارمة. وفي مساء اليوم الذي وصلت فيه "تركان خاتون" إلى بغداد، كانت الزوجة تداعب زوجها المتيم بها، وتهمس في أذنه برغبة نبتت فجأة في نفسها: أنها تريد منه أن يثبت لها بالدليل القاطع الملموس أنه يحبها حباً لا حد له كما يقول، وأنه يفضلها على زوجاته وسراريه وجواريه جميعاً، وأنها المرأة التي ملكت مشاعره واستحوذت على قلبه كاملاً لا تشاركها فيه امرأة أخرى...

أصغى المهتدى إليها في بادئ الأمر مدهوشاً لا يفهم لهذا الإلحاح معنى، فقد أحبها فعلا، وجعلها في الواقع سيدة نساء القصر على الإطلاق، فطلبها مجاب ولا يرد أحد لها أمراً فما الداعي إلى هذا الحديث الذي لم تطرقه الزوجة الشابة من قبل؟ وما الذي جعلها تشك في حبه وإخلاصه فتطلب منه دليلاً قاطعاً ملموساً على هذا الإخلاص وذلك الحب؟! ولكنه أدرك السبب والمسبب، عندما أفضت إليه زوجته بالدليل الذي تطلبه منه: وهو الاعتراف لابنها جعفر بولاية العرش ووراثه الخلافة من بعده!

وقطب المهتدي جبينه، وأغمض عينيه، فلاحت له صورة "تركان خاتون" وفهم بدون إجهاد في التفكير، أن الأم هي صاحبة ذلك الإلحاح وأن الابنة تردد فقط ما تتلقنه من أمها على أثر وصولها إلى القصر، فأخذ رأس الزوجة المحبوبة بين يديه، وقبلها على الوجنتين بحرارة وحنان، وهمس في أذنها كما همست هي من قبل في أذنه:

– سيكون لك ما تريدين سيدتي الحبيبة، ولكن لا بد لي من تمهيد السبيل لقرار على هذا الجانب من الأهمية، فلجعفر إخوة أكبر منه سناً، وما زلت أنا في العقد الثالث من العمر والأيام بيننا، و الوقت أمامنا طويل، وسوف أعد العدة من الآن لتحقيق أمنيتك هذه...

وعادت الابنة إلى أمها وقصت عليها ما حدث فنامت "تركان خاتون" ليلتها الأولى في بغداد هادئة البال مطمئنة إلى أن الخطوة الأولى في تنفيذ الخطة قد مرت بسلام وعلى خير ما يرام!

أنبأت "تركان خاتون" زوجها بنجاح المهمة التي جاءت من أجلها إلى بغداد، ودعته إلى موافاتها في عاصمة العباسيين ليكونا معاً جنباً إلى جنب على مقربة من الخليفة، كيلا يعدل عن رأيه ويهمل وعده؛ فلبى "ملك شاه" دعوتها وأسرع إلى بغداد فوصل إليها في شهر رمضان سنة ٤٨٥ – الموافقة لسنة ١٩٠٢ للميلاد – فاستقبله المهتدي متظاهراً بالابتهاج وبالغ في الترحيب به. وكان أول ما صنعه السلطان أن أعلن في نهاية شهر الصيام أنه قرر اتخاذ مدينة "أصفهان" مقراً له في الصيف وجعل بغداد مقره الشتوي. وكان يرمي بذلك إلى تبرير بقائه في مدينة واحدة مع الخليفة جانباً من السنة.

وخرج "ملك شاه" إلى الصيد والقنص في أيام العيد ورج إلى بغداد في الثالث من شهر شوال. وأكل من الصيد الذي جاء به، فأصيب بتسمم قيل عنه أنه ناتج عن لحم فاسد، ومات بين ذراعي زوجته التي

ساورتها الشكوك، ثم تحولت شكوكها إلى يقين بأن "المهتدي" هو الذي سعى إلى دس السم للسلطان لكي يتخلص منه ويتهرب من البر بوعده، ويحتفظ بولاية العهد لكبير أبنائه دون حفيدها جعفر!

وكانت الظروف حرجة، والساعة رهيبة، فكظمت المرأة غيظها، واضطرت إلى تعديل خطتها لكيلا يبطش بها الخليفة فيفلت العرش من يدها في بغداد وأصفهان على السواء، خصوصاً أن كبير أبناء ملك شاه الثلاثة "بركياروق" كان يترقب خلو العرش ليتبوأه خلفاً لأبيه.

وكانت "تركان خاتون" تؤثر ابنها "محموداً" على أخويه "بركياروق" و"سنقر"، وتمهد السبيل له – في حياة والده – لكي يرثه على العرش في أصفهان، كما كانت تمهد السبيل لحفيدها جعفر لكي يرث أباه المهتدي على عرش بغداد.

وكان لا بد من موافقة المهتدي على تولية خلف للسلطان الراحل، فالخليفة كان يحتفظ لنفسه بالسلطة الروحية وإقرار الملوك على عروشهم، بالرغم من أن السلطان كان في الواقع صاحب الأمر والنهي في بغداد نفسها! ولهذا، أسرعت "تركان خاتون" إلى المهتدي تعرض عليه الأمر، فأقرها على تولية ابنها محمود خلفاً لأبيه، وأخفت المرأة خبر وفاة السلطان عن رعيته وعن ولديه الأخيرين على الخصوص، ورحلت عن بغداد قاصدة إلى أصفهان، ومعها جثة زوجها ملك شاه ملفوفة في كفنها، فكانت رحلة قلما سجل التاريخ مثلها.

كان محمود في الخامسة من العمر عندما مات أبوه، وكان "بركياروق" في الخامسة عشرة، وهو كبير أبناء ملك شاه من زوجة أخرى، وقد صحب محمود أمه في رحلتها من بغداد إلى أصفهان. أما "بركياروق"، الوارث الشرعي لعرش أبيه، فقد كان باقياً في أصفهان وظل يجهل خبر موت السلطان إلى أن وصلت إلى العاصمة طلائع المركب، وأصدرت "تركان خاتون" أمرها بطرد ابن زوجها من البلاد، ودعت الشعب إلى الاعتراف بمحمود ومبايعته خلفاً لأبيه.

وانقسم الشعب إلى فريقين، ودارت رحى الحرب الأهلية في أرجاء السلطنة، فقاد بركياروق جيشه، وقادت "تركان خاتون" بنفسها جيش ولدها محمود، وهذا ما كان المهتدي يرجوه ويتمناه؛ فإن اقتتال الأخوين في سبيل العرش يضعف هذا ويضعف ذاك على السواء، وبإضعاف الدولة السلجوقية، يسترجع الخليفة العباسي بعض السلطة التي فقدها، ويتحرر من القيود التي فرضها عليه سلاطين أصفهان.

وفي سنة ١٩٠٣ – الموافقة لسنة ٤٨٦ للهجرة – دارت رحى المعركة الفاصلة، على أبواب العاصمة الفارسية، بين أنصار الأخ الكبير وأنصار الأخ الصغير، ورؤيت تركان خاتون ممتطية صهوة جوادها، تحث رجالها على القتال وتتقدم الصفوف وتقارع الأبطال في الميدان والسيف بيدها يقطر دماً، ولكن شجاعة السلطانة الوالدة لم تكن كافية لإحراز النصر، فإن جيش غريمها كان أوفر عدداً وعدة من جيشها، فانهزمت في المعركة واضطرت إلى التقهقر فارتدت إلى العاصمة وتحصنت فيها.

غير أن القواد الموالين لها أقنعوها بأن مواصلة الصمود في وجه العاصفة لن يجديها نفعاً، وأن الصلح الشريف على تقسيم المملكة بين الأخوين، خير من الاستمرار في حرب طاحنة قد تودي بمصالح الاثنين، بل قد توردهما موارد الهلاك، فأذعنت تركان خاتون للنصيحة مرغمة، وعقدت مع "بركياروق" صلحاً تم بموجبه اقتسام المملكة، فاحتفظ محمود – برعاية أمه ووصايتها – بالعاصمة أصفهان وبلاد فارس، واحتفظ "بركياروق" بالأقاليم الأخرى، ومنها العراق حيث بغداد مقر الخلافة العباسية.

ولكن هل هدأت في نفس تركان خاتون ثورة الطموح والمخاطرة والاستئثار بالسلطة؟.. كلا!. فقد جبلت تلك المرأة على حب المغامرة وركوب المخاطر، وما أن استقر بها وبابنها محمود الحال في أصفهان، حتى بدأت من جديد تعد العدة لاستئناف السعي عندما تسنح الفرص، لا في سبيل عرش واحد في فارس، بل في سبيل العرش الآخر أيضاً، في بغداد. وذهبت إليها في هذه المرة ابنتها زوجة الخليفة وأم جعفر. وأملت السلطانة إرادتها على ابنتها في أصفهان كما أملتها عليها من قبل في بغداد، وعادت الابنة إلى زوجها الخليفة وقد بيتت في صدرها أمراً، وكانت آخر كلمات همست بها تركان خاتون في أذنها، وهي تودعها:

– يمكنك أن تعتمدي الاعتماد كله على "شمس النهار" قهرمانة المهتدي، فهي التي دست السم لأبيك بأمر من الخليفة، وهي التي

ستدس السم للخليفة بأمر منك، فقد اكتسبتها بما أغريتها به من مال. والسبيل ممهدة لك فأقدمي ولا تترددي!

وفي الوقت الذي كانت فيه تركان خاتون تحرض ابنتها على قتل زوجها بالسم، كان المهتدي من ناحيته يحتاط للغد، ويتخذ التدابير اللازمة للتخلص من السلطانة الخطرة بعدما تخلص من زوجها ملك شاه، لأنه ظل يتوجس خيفة منها ، ويخشى أن يعاودها الطمع فتسعى مع ابنها محمود، أو مع ابن زوجها بركياروق، إلى التحكم في مصير الخلافة بعد موته، أو أن تعجل موته لتحقيق أغراضها..

وفي سنة واحدة – وهي سنة ٤٨٧ للهجرة، الموافقة لسنة ١٠٩٤ للميلاد – أي بعد سنتين من وفاة ملك شاه في ظروف غامضة، حصد الموت ثلاثة أرواح في ظروف لا تقل غموضاً عن السابقة؛ فقد مات عبد الله بن محمد المهتدي بالله، وهو السادس والعشرون من الخلفاء العباسيين، على أثر تناوله الطعام من يد القهرمانة شمس النهار، كما مات من قبل ملك شاه على أثر تناوله الطعام الذي أعدته القهرمانة نفسها، من الصيد الذي جاء به.. وفي الوقت نفسه ماتت تركان خاتون، زوجة السلطان ملك شاه في أصفهان، أبيه، وتناولها الطعام من يد قهرمانة التي صحبتها من بغداد عندما رحلت عنها حاملة جثة زوجها، ومات السلطان محمود بن مالك شاه في ظروف مشابهة لتلك التي أحاطت بموت أبيه، وموت أمه وموت صهره المهتدي!

امرأتان بذلتا المساعي وهذه المكايد في سبيل عرشين؛ فقد أرادت تركان خاتون أن يجلس ابنها على عرش أصفهان ويجلس حفيدها على عرش بغداد، على أمل أن يوحد العرشان فيما بعد فلا يبقى غير عرش واحد لدولة عربية تركية تخلف الدولة العربية الفارسية التي أقامها العباسيون، وسايرتها ابنتها زوجة المهتدي العباسي في السعي لبلوغ هذه الأهداف، ولكن الأقدار أرادت غير هذا، فقد مات محمود طفلاً ولم يمارس الملك، وأقصي جعفر بن المهتدي ولم يخلف أباه على العرش بل خلفه ابنه الأكبر أبو العباس أحمد المستظهر بالله. وماتت تركان خاتون حزينة كئيبة مكسورة الخاطر، دون أن تنعم ببلوغ هدف واحد من أهدافها الكثيرة.

مأساة أم خليل

الثقة بالنفس، وقوة الإرادة، ورباطة الجأش، صفات تجعل صاحبها أهلا لارتقاء أرفع مدارج الحياة. وقد اجتمعت هذه الصفات، مضافا إليها الجمال وسحر البيان، في امرأة كانت جارية فجعلت منها ملكة.

– وبعد؟ فماذا ترين خلف الحجب يا مرجانة؟

– أرى أيضا أشياء كثيرة يا شجرة الدر، وأقرأ في صحائف الغيب وقائع يمتزج فيها الوضوح بالغموض، والخير بالشر، والنور الوهاج بالظلام الدامس! أرى وأقرأ ما يدعو إلى الفرح والحبور، وأرى أيضا وأقرأ ما يحمل على الغم والكمد!

– رددي على مسامعي شيئا ما، مرجانة! تكلمي ولا تخفي عني شيئا، فشجرة الدر ترحب بالبشير، ولا تخشى النذير!

كانت المرأتان جالستين على حصير، داخل قاعة يضطرب فيها ضوء سراج ضئيل، وقد بسطت إحداهما على الأرض منديلا فرشت عليه رمالا حمراء، وجعلت تقلب بين أناملها كومة من الكعوب والحصى، وهي عدة المنجمات قارئات الغيب.

إنهما أسيرتان في تلك القاعة ذات الجدران الضخمة، التي تطل نافذتها الصغيرة على فناء تحيط به أسوار مرتفعة، وتمتد وراءه الجبال والوديان. تلك هي قلعة "الكرك" التي وراء نهر الأردن، والتي يتسلط صاحبها الناصر داود على البقاع المجاورة. واستأنفت المنجمة استطلاع حوادث المستقبل، مستعينة برمالها وكعوبها وحصاها، طالبة النجدة بين حين وحين من النجوم المتلألئة في الفضاء، خلال قضبان النافذة الضيقة:

- أرى محفة مغطاة بالدمقس والأرجوان.. أمقعد وثير هي؟ أم عرش رفيع؟ لست أدري!! وأراك يا شجرة الدر جالسة عليها مغطسة بطيلسان براق! وأرى رجلا جالسا معك جنبا إلى جنب، وأرى الرجل يختفي فتبقين وحدك على العرش.. ثم يجلس معك عليه رجل آخر في ريعان الشباب، ثم يختفي وتبقين وحدك مرة ثانية، ثم يجئ رجل ثالث فيجلس واختفى مثل سابقته، ويتركك وحدك للمرة الثالثة، ثم تهبط غمامة سوداء، فتجلل العرش وتخفيه عن الأنظار، ثم...

- ثم ماذا يا مرجانة؟ ثم ماذا؟

- ثم يتدفق سيل أحمر يجرف العرش ويبعثر حطامه!

- هل هو سيل من الدم يا مرجانة؟

– قد يكون كذلك يا شجرة الدر! ولكن المنجمين قد يخطئون، فلا تدعي للروع منفذا إلى صدرك!

– لا أخفي عنك يا مرجانة أنني بعيدة المطامع، واسعة الآمال، أوثر الحيطة على التراخي إنني أنظر إلى المستقبل باطمئنان، لأنني واثقة من تحقيق مطامعي وبلوغ آمالي، ولكن أعد للمفاجآت عدتها لكيلا تأخذني على غرة مني!

– أرجو أن يصدق حدسي، وأن تطابق الحوادث ما ينبئ به الغيب وهو أنك ستجلسين على العرش ثلاث مرات وحدك، وثلاث مرات مع شريك!

– وولدي؟ وندي يا مرجانة؟ ألا ينبئك الغيب بما ينتظره في الغد؟

– ولدك يا أم خليل؟.. لا أرى له أثرا في صحائف القدر..

– ولكنه لا يزال طفلا في الثالثة من العمر، فالوقت لم يحن بعد للاهتمام بأمره.

– ونجم الدين أبو خليل، سيدي وسيدك؟

***

دخل على المرأتين في تلك اللحظة رجل طويل القامة، ممتلئ الجسم قوي البنية، في نحو الخامسة والثلاثين من العمر، وقد ارتسمت على وجهه أمارت الغبطة والارتياح، فنهضت شجرة الدر ورفيقتها، ووقفتا خاشعتين، فقال الرجل: "تتحدثان عني؟" فأجابت شجرة الدر:

– كانت مرجانة تقرأ لي ما سطر لنا في صفحة القدر يا أبا خليل!

فضحك الرجل وقال مداعبا:

– أما زلت تلاحقين المنجمين والمنجمات، وتؤمنين بلغة الكعوب على الرمال؟

ثم التفت إلى مرجانة سائلا:

– وماذا تقولين لي أيتها العرافة الماهرة؟

فأجابت مرجانة بصوت متهدج منبعث من أعماق الصدر:

– لا تهزأ بي وبأمثالي أيها المولى، ولا تكذب الحوادث تكهنات المنجمين! قلت أن شجرة الدر ستجلس على العرش مع ثلاثة ملوك، وستكون أنت واحدا منهم، ولكنك لن تنعم طويلا بالجاه والسلطان! وأرى أسرتك تتخبط في أمواج من الدماء!

- كفي عن هذا يا وجه البوم، ودعينا نستقبل الحوادث كما تجئ بها الأيام، فالله وحده عليم بما قدر للإنسان من خير وشر! أما أنا فإنني أحمل إليكما الآن خبرا سارا، وهو أن الناصر داود قد عقد معي صلحا وحالفني على شروط طيبة، ونحن سائرون بعد أيام إلى مصر إن شاء الله!

فردت المرأتان وقد ارتسم الفرح على محياهما: "إن شاء الله!"

***

مات الملك الكامل ابن الملك العادل، أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٦٣٥ هجرية، الموافقة لسنة ١٢٣٨ للميلاد، فاستولى على عرش مصر ابنه الأصغر، سيف الدين أبو بكر، الملقب بالملك العادل الثاني، وقام ابنه الأكبر نجم الدين المعروف بالملك الصالح، وكان نائب أبيه في حلب، يطالب بالملك لأنه أحق به من أخيه، وزحف على رأس قوة صغيرة نحو الجنوب، فاعترضه في الطريق صاحب "الكرك" الناصر داود، وأوقعه في كمين، فتشتت رجال نجم الدين، وبقي هو أسيرا في قبضة الناصر مع لفيف من الرجال والنساء. وأراد صاحب "الكرك" أن يساوم على الغنيمة فيتفق مع أحدهما على حساب الآخر، وانتهى الأمر بأن عقد الآسر محالفة مع الأسير، على أن يطلق سراح نجم الدين لينتزع عرش مصر من أخيه، ويقطع الناصر ولاية الشام.

ذلك هو الخبر السار الذي حمله الأسير إلى جاريته شجرة الدر التي وقعت معه في أسر صاحب الكرك، وهي أم ولده خليل، وكان قد أحمل زوجته "العالمة" بسببها، وفتن بجمالها وذكائها ومعرفتها الواسعة فتزوجها فيما بعد وكانت تلك المرأة الجريئة ترسم الخطط لإبعاد كل نفوذ عن الرجل الذي استولت على لبه، وكانت تناديه "يا أبا خليل" بالرغم من أن ابنه الأكبر من زوجته هو "غياث الدين تورانشاه".

أما "مرجانة" فهي جارية أخري اشتراها نجم الدين في حلب، وكانت هي وشجرة الدر تعتقدان أنهما من بلدة واحدة، في جبال القوقاز، حيث أخذهما النخاسون طفلتين صغيرتين وباعوهما إلى الأمراء والحكام في أرض الشام. وكانت مرجانة تهيم بحب سيدها نجم الدين، تتفانى في خدمته، وتغار من شجرة الدر وسلطانها عليه، ولكنها كظمت غيظها، وآثرت التقرب من المرأة المختارة والتزلف إليها، على أن تستغل نفوذها، وتنتقم منها إذا ما سنحت الفرصة للانتقام.

وأحبتها شجرة الدر لأنها كانت تؤمن بقراءة الغيب و"ضرب" الرمل واستطلاع الفلك، وهي فنون درستها مرجانة على رجل من الفرس الإسماعيليين عندما كانت ملكا لأحد أمرائهم في جبال اللاذقية، وعرفت المنجمة كيف تستخدم علمها لبلوغ مآربها، فانقادت شجرة الدر لنصائحها وصدقن كل تكهناتها وحرصت على صداقتها. وعندما رحل نجم الدين عن حلب قاصدا إلى مصر، أخذ معه صفيته شجرة الدر التي طلبت إليه أن يصطحب مرجانة أيضا فأجابها إلى طلبها. وهكذا قضت

المرأتان سبعة شهور أسيرتين مع سيدهما في قلعة الكرك، ثم وصلتا معه إلى مصر بعد أن فك الناصر داود أسره.

***

خلع الملك الصالح نجم الدين أخاه الملك العادل سيف الدين وزج به في السجن حيث بعث إليه بمن قتله خنقا، في عام ٦٣٧ للهجرة الموافقة لسنة ١٢٤٠ للميلاد. واستقل بملك مصر فأحسن التصرف وأصلح الأحوال، وأصبحت شجرة الدر سيدة القصر، وصاحبة الكلمة المسموعة في كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة، ولكنها فقدت وحيدها صبيا.

والملك الصالح هو منشئ فرقة المماليك البحرية الذين كانوا عماد عرشه، والذين شيد لهم القصور في جزيرة الروضة بالمنيل. وقالت مرجانة لرفيقتها السابقة في الأسر:

- ها قد جلست على العرش مع الملك الصالح بعد أن أصبحت زوجته، فتحققت المرحلة الأولى من تكهن الكرك، فماذا أعددت للمنجمة من عطاء؟

فأجابت شجرة الدر:

- عقد من اللؤلؤ يا مرجانة، وقبقابا من خشب الصندل المموه للأسف، ولكن ما تكهنت به بكلمات غامضة عن ولدي قد تحقق أيضا ويا للأسف، فقد مات خليل، ولكن يجلس على العرش بعد أبيه!

- عليك يا مولاتي أن تنجبي للملك الصالح "خليلا" آخر!

- وابنه البكر، غياث الدين تورانشاه؟

- قد تزيحه الأقدار من طريقك، كما أزاحت أمه وجعلتها مهملة في أركان القصر!

- ليستجيب الله دعاءك يا مرجانة!

***

لكن الله لم يستجب دعاء السوء هذا فقد مات الملك الصالح نجم الدين بعد مرض عضال عانى منه الأمرين، في عام ٦٤٧ للهجرة، الموافق لعام ١٢٤٩ للميلاد، تاركا ولدا وحيدا هو غياث الدين تورانشاه، الملقب فيما بعد بالملك المعظم، وكانت وفاة الملك الصالح صدمة قوية، لأنها حدثت في أثناء المعارك التي نشبت بين المصريين والصليبيين بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع، الذي نزل في دمياط في الخامس من شهر يونيو سنة ١٢٤٩، وجعل يتأهب للزحف على القاهرة بطريق المنصورة، وذلك قبل أن توافي المنية الملك في هذه المدينة بخمسة شهور. أخفت شجرة الدر خبر وفاة نجم الدين من الجيش

والشعب، وواصلت تصريف أمور الدولة بمفردها، مستعينة برهط من الخلصاء والمقربين، وبعثت في طلب غياث الدين تورانشاه، وكان حين ذلك في أرض الشام نائبا عن أبيه، واستغرق سفر الأمير خليفة الملك الراحل، ثلاثة شهور حافظت فيها شجرة الدر على السر الرهيب، وتمكنت من إحراز انتصارات باهرة على الإفرنج، فأوقفت زحفهم ومزقت كتائبهم، وكانت تصدر الأوامر والمراسيم مذيلة بخاتم الملك الصالح مدعية أنه مريض يلازم الفراش!

وقالت مرجانة لرفيقتها السابقة في الأسر:

- ها قد اختفى الرجل الأول وجلست وحدك علي العرش فتحققت المرحلة الثانية من تكهن الكرك، فماذا أعددت للمنجمة من عطاء؟

فأجابت شجرة الدر :

- سوارا من الذهب المرصع بالجواهر الكريمة يا مرجانة، وقبقابا من خشب الصندل المموه بالذهب، ولكن هذه المرحلة الثانية محزنة مؤلمة، فقد مات الرجل الوحيد الذي أحببته وأحبني في هذا العالم!

- الرجال كثيرون يا مولاتي ، وأي رجل منهم يستطيع أن يقاوم سحر هذا الوجه الفتان، وسهام هاتين العينين؟ ولكن تورانشاه في الطريق فهل يصل إلى مصر؟

فانتفضت شجرة الدر وقالت:

– اسكتي! اسكتي يا مرجانة! أنه لخاطر فظيع يخطر لي الآن!..

***

وصل الملك العظيم غياث الدين تورانشاه إلى المنصورة، فأعادت إليه شجرة الدر مقاليد الحكم، وأعلن خبر وفاة أبيه الملك الصالح والمناداة بنفسه ملكا على مصر والشام. وبعد ذلك اليوم بأسبوعين، حلت بالإفرنج الكارثة في معركة "المنصورة" فسحق جيشهم سحقا، ووقع الملك لويس التاسع أسيرا في أيدي المصريين، وهلكت زهرة الصليبيين في تلك المعركة الدموية، غير أن الملك المعظم أساء التصرف مع زوجة أبيه، ومع الأمراء الذين حافظوا على العرش في غيبته، فتآمر لفيف منهم على قتله، ونفذوا قرارهم بقيادة بيبرس البندقداري، الذي كان أول من ضرب الملك بالسيف فقطع يده. وقد حاول تورانشاه الفرار فأدركه القتلة في وسط النيل وأجهزوا عليه، وألقيت جثته في العراء ثلاثة أيام ولا يعرف أحد أين دفنت، وكان ذلك في شهر المحرم سنة ٦٨٤ هـ، الموافقة سنة ١٢٥٠ للميلاد، بعد خمسة أسابيع من مبايعة تورانشاه بالملك.

وبموت الملك المعظم انقرضت أسرة الأيوبيين في مصر، وتشاور الأمراء فيما بينهم، ثم ألقوا بمقاليد الحكم إلى شجرة الدر، فكانت أول ملكة جلست على العرش وحدها في تاريخ الإسلام!

وقالت مرجانة لرفيقتها السابقة في الأسر:

- ها قد جلس رجل آخر على العرش بجانبك، ثم اختفى وعدت إلى الجلوس على العرش وحدك مرة ثانية، فتحققت مرحلتان أخريان من تكهن الكرك، فماذا أعددت للمنجمة من عطاء؟

- ثوبين مزخرفين، وقبقابا من خشب الصندل المموه بالذهب!

***

لم يقابل اعتلاء امرأة عرش مصر بالرضا والقبول من الناس، في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وأرسل الخليفة المستعصم بالله العباسي يقول: "ويل لبلد تحكمه امرأة! إذا كانت مصر قد أقفرت من الرجال فأخبرونا لكي نرسل إليكم رجلا!"

وأدركت شجرة الدر بثاقب نظرها، وحسن تقديرها، أن الأمور لن تستتب لها ما دامت محرومة من سند رجل يشاطرها السلطان، ويأخذ مكانه بالقرب من مكانها على العرش، فتزوجت الأمير عز الدين أيبك التركماني، فشاركها في الحكم باسم "الملك المعز" وحاول إرضاء الفئة الباقية على ولائها للأسرة الأيوبية، فجاء بالأمير الصغير "موسى" من سلالة الملك العادل، ونصبه معه ملكا باسم الملك الأشرف، ولكنه تخلص منه بعد وقت قصير فبعث إليه من قتله في السجن، وشتت شمل المماليك الصالحية أنصار الأيوبيين، وصفا له ولشجرة الدر الجو، فراح الزوجان يوطدان عرشهما في الديار المصرية.

وقالت مرجانة لرفيقتها السابقة في الأسر:

- ها قد أصبحت زوجة سعيدة ووجدت الرجل اللائق بك وبالعرش معا. فتحققت المرحلة الخامسة من تكهن الكرك. فماذا أعددت للمنجمة من عطاء؟

- قرطين من الماس، وقبقابا من خشب الصندل المموه بالذهب!

لم يدم الصفاء بين الزوج والزوجة، فإن شجرة الدر لم تكن المرأة التي تخضع لرجل، وترضى بالحياة الخاملة في خدرها، ولم يكن الملك المعز بالرجل الذي يطأطئ الهام لامرأة، ويستسلم لإرادتها ويعمل بمشورتها، وقد أسكره المجد وفتح أمامه آفاقا بعيدة، فجعل يفكر في مستقبل أسرته ومن يخلفه على العرش. ولم تكن شجرة الدر قد أنجبت في حياتها غير ذلك الطفل الذي مات صغيرا، وقد أشرفت على الخمسين من عمرها، وفى حين أن جارية من جواري المعز قد أنجبت له ابنا سماه "نور الدين علي" وأعده للملك من بعده، فضلا عن أنه انصرف إلى التفكير في الزواج من ابنة أمير من كبار الأمراء، وبعث برسول إلى "بدر الدين لؤلؤ" صاحب الموصل يطلب منه أن يزوجه ابنته.

علمت شجرة الدر بكل هذا، وشعرت بأن زوجها قد بدأ يتنكر لها، ونقل إليها جواسيسها أنه لن يتردد في قتلها للتخلص منها، فقررت اغتياله قبل أن يغتالها، وكانت قد شاركته في العرش سبعة أعوام كلها متاعب وخلافات وخيانات، فعهدت إلى جماعة من غلمانها المخلصين

بالقضاء على الزوج المزعج المتمرد، ونفذ الغلمان الأمر فوثبوا على المعز وهو يتوضأ في الحمام، وقتلوه خنقا، وكانت شجرة الدر واقفة تشجعهم بالوعود، وقيل أنها ضربت رأس الملك بالقبقاب بعد أن تركه الغلمان على البلاط جثة هامدة. وكان ذلك في سنة ٦٥٥ للهجرة، الموافقة لسنة ١٢٥٧ للميلاد. وبقيت الملكة صاحبة العرش وحدها، وظنت أن المستقبل في يدها.

وقالت مرجانة لرفيقتها السابقة في الأسر:

– ها قد اختفى الرجل الثالث، وأصبحت مرة أخرى ملكة لا يشاركك في الملك أحد، فتحققت المرحلة السادسة من تكهن الكرك. فماذا أعددت للمنجمة من عطاء؟

– خلخالا مرصعا بالياقوت، وقبقابا من خشب الصندل المموه بالذهب!

***

ثار ثائر المماليك المعزية لتلك الجريمة البشعة، فهاجموا القصر، وفتكوا بالغلمان والخدم والعبيد الذين عرفوا فيهم الولاء لشجرة الدر وأرغموا الملكة على البقاء في أحد أبراج القلعة، وشاءت سخرية الزمن أن ينهض المماليك الصالحية، أنصار الملك الصالح، زوج شجرة الدر بإنقاذها من الأسر، ولكنهم فشلوا في محاولتهم. وكان المماليك قد نادوا بنور الدين علي بن المعز، ملكا باسم "الملك المنصور" فحرضتهم أمه – وكانت شجرة الدر قد حاولت من قبل أن تدس لها السم – على

الانتقام للملك القتيل بالقضاء على الزوجة القاتلة. فاستمعوا لرجائها، وصدعوا بأمرها...

أرادت شجرة الدر أن تقضي في حياتها على كل من وقف في سبيلها فلم تترك حولها أصدقاء تعتمد عليهم في وقت الشدة. فقد أدركتها الغيرة من "العالمة" زوجة الملك الصالح فأقصتها عن زوجها، وساهمت في قتل تورانشاه، واشتدت غيرتها من زوجة المعز لأنها أنجبت له وارثا للعرش فأرادت أن تقتلها أيضا وتقتل وارث العرش معها ولكن تلك المرأة التي حكمت مصر ثمانية عشر عاما، وجمعت في شخصها المتناقضات من صفات حسنة وعيوب فاضحة والتي بلغت من العز والسؤدد الأوج الأعلى، وكان في وسعها أن تظل سيدة مصر مدى عمرها تلك المرأة العجيبة فشلت في محاولة التوفيق بين خشونة الرجولة ونعومة الأنوثة، فأخذت من الاثنين عيوبهما، فدفعت بنفسها إلى الهلاك!

بعد مقتل المعز بأيام، جئ بشجرة الدر إلى غريمتها أم نور الدين الملك المنصور، فأمرت بقتلها، وإذا بسرب من الجواري يثبن عليها ويشبعنها ضربا بالقباقيب، حتى أزهقت روحها على هذا النحو الفظيع... وكانت مرجانة في مقدمة الضاربات! تلك المنجمة التي شاءت الأقدار أن تكون صادقة في تكهناتها، تلك الغريمة التي حالت شجرة الدر بينها وبين الملك الصالح، كانت طوال تلك الأعوام تتجسس على شجرة الدر وتوقع بينها وبين الناس، وقد سنحت لها في النهاية فرصة الانتقام فاغتنمتها!

وقالت مرجانة لرفيقتها السابقة في الأسر، وهي تحتضر:

– ها قد تحققت المرحلة الأخيرة من تكهن الكرك، وطغى بحر من الدماء الحمراء عليك وعلى من أحاط بك يا شجرة الدر! فماذا أعددت الآن للمنجمة من عطاء؟

لم ترد شجرة الدر في هذه المرة على سؤال المنجمة، ولكنها، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتلقي حولها نظرات الوداع، وتشعر بعظامها تتحطم من الضرب، عرفت القباقيب المصنوعة من خشب الصندل، والمموهة بالذهب التي كانت مرجانة ورفيقاتها يهوين بها على رأسها!

المجنونة

أحبها رجلان، وأحبت غيرهما، وطار عقلها يوم جاءها الفرج!

الشيخ خالد النبكي فارس مغوار وقائد محنك، يأتمر بأمره ثلاثة آلاف رجل بعدتهم الكاملة، وهو يسيطر على أطراف البادية من بعلبك إلى حمص ويضع نفوذه وشجاعة رجاله في خدمة من يدفع له الثمن الذي يطمع فيه، ولكنه يميل إلى "المماليك البحرية" لأن إحدى زوجاته من بناتهم، ولأن تلك الزوجة أحب نسائه إليه، وهي أم ابنته الجميلة "وسيمة" الفاتكة اللحظ القوية الساعدين، التي طالما رافقت أباها إلى ميادين القتال، ونازلت الكماة الصناديد في المعارك، ومن صحراء تدمر إلى جبال لبنان، ثم إلى سيناء وسواحل البحر الأحمر.

وأقسم خالد النبكي يمين الطاعة والولاء للملك الظاهر بيبرس البندقداري صاحب مصر، وكان له عونا على أعدائه في جميع الحروب التي خاض هذا السلطان غمارها لإخضاع الإمارات والمقاطعات العربية في الأراضي السورية، ووقع نظر بيبرس ذات يوم وهو يرد الزيارة لصديقه وحليفه خالد النبكي في مضاربه في سهل البقاع، على مقربة من بعلبك، على الحسناء الساحرة العينين الوضاحة الجبين، وكان السلطان قد سمع أخبارها من بعيد وأعجب ببطولتها في الميادين فقال لصديقه:

- أي أخي خالد! ألا تخشي على ابنتك أذى وهي مسافرة تختلط بالرجال كأنها منهم؟ لو كنت مكانك لحبستها في خدرها خوفا عليها من النفوس الأمارة بالسوء!

- لا أخشى على وسيمة شيئا فهي أخت الرجال في الحرب والسلم وهي قادرة على صيانة نفسها إذا ما أراد أحد بها شرا. أما سمعت بما حدث لها منذ شهور مع الملك القاهر الأيوبي؟

- كلا، ماذا حدث لها مع ذلك الأمير المغرور؟

- لقد التقى الملك القاهر بابنتي ذات يوم وهو قادم إلى دمشق وكانت وسيمة قد خرجت للنزهة على ضفاف بردى، فاعترضها ذلك الأمير المغرور كما تسميه ووجه إليها الخطاب بلهجة آلمتها، فاستلت الفتاة سيفها ووثبت على ذلك الوقح، فتراجع واستل سيفه أيضا.

- وهل كان في عزلة عن الناس؟

- نعم، لم يكن أحد يراهما في تلك الساعة، فاشتبك السيفان، وما هي إلا لحظة حتى كان القاهر يطلق لجواده العنان هاربا والدم يسيل من كتفه..

- بورك في ابنتك يا خالد!

– وفي استطاعتك يا مولاي أن تطلب منه أن يريك الجرح الذي أصيب به في تلك المبارزة الخلوية.

– كيف لم يبلغني خبرها قبل الآن؟

– لا يدهشنك أن يخفي الملك القاهر خبر ما حل به. أما ابنتي فأنها لا تحدث أحدا عن نفسها ولا تذكر فعالها على مسامع أحد، ولم يطلع على هذا الحادث غير والدها.. وأنت يا مولاي!

– إن وسيمة لجديرة بأن تتبوأ المكانة اللائقة بها في قصرنا بمصر يا خالد!.

– إن ابنتي وأسرتها وجميع من يلوذ بها ملك لك يا مولاي

***

تم الاتفاق بين الملك الظاهر بيبرس البندقداري وصديقه وحليفه الشيخ خالد النبكي على أن تدخل وسيمة حرم السلطان وتصبح زوجة له وعلى أن يتعهد لأبيها بألا يطلقها مدى الحياة، ولكن الفتاة قابلت ذلك القرار بالامتعاض، ثم ثارت وصاحت قائلة:

– إن الفتاة التي تمتشق الحسام وتنازل الفرسان وتقارع الأبطال في الحروب والغزوات، يحق لها يا أبي أن تختار الرجل الذي تريده زوجا لها بنفسها وبملء إرادتها. وابنتك لا ترغب في حياة القصور وان

كانت قصور الملوك والسلاطين. لقد نشأت في الصحراء وترعرعت في الفلاة أتسلق الجبال الشاهقة، وأهبط الوهاد السحيقة، وأمرح في السهول المترامية الأطراف حرة طليقة كالهواء الحر الطليق! وأنت تريدني الآن زوجة، بل أمة لرجل يحبسني وراء الأسوار وفى ظلمات الخدور؟ إن هذا لن يكون!

فوجئ خالد بتلك الثورة التي لم يكن ينتظرها من ابنته وفلذة كبده، ولكنه أدرك خطأه، وأقر للفتاة بأنه تسرع في القبول، ثم جعل يلاطفها ويبسط لها الأسباب التي يجب عليها من أجلها أن تضحي بنفسها في سبيل أسرتها وعشيرتها وبني قومها، ومما قاله لها:

- أي بنيتي الحبيبة العزيزة، أعلم علم اليقين أنك لست كغيرك من ربات الخدور لأنك قوية الإرادة والعزيمة وإنني لواثق بأنك سوف تسيطرين على زوجك وتملكين قياده. فإذا ما أصبحت يا وسيمة زوجة الملك الظاهر بيبرس البندقداري صاحب مصر وسيد هذه البلاد فإن أسرتك سوف تبسط سلطانها أيضا على هؤلاء الأمراء والزعماء الذين يحيطون بنا ويرهبون جانبنا، ثم إن هناك أسبابا أخرى..

فقاطعت الفتاة أباها صارخة في وجهه:

- ولكني أحب ابن عمي يا أبي! أحب ابن عمي "سليمان" حبا عظيما حبا يجب أن ينتهي بالزواج، وسليمان هو الزوج الذي أعلل النفس به

وأريده لي رفيقا في الحياة.. في الحياة الحرة كما نريدها نحن أن تكون، لا كما يريدها سكان القصور وأبناء المدن!

***

كان بيبرس البندقداري يكره الملك القاهر الأيوبي، وهو من سلالة الناصر داود بن المعظم عيسي. وكان الملك القاهر يتظاهر بالولاء لبيبرس وفحولة المماليك البحرية، ولكنه في الحقيقة يمقت السلطان وعشيرته ويغص لهم في السر ويكيد لهم في الخفاء.

كان بيبرس يعلم ذلك ويتحين الفرص للإيقاع بذلك الأمير إحساس الخطر، وحانت الفرصة للتخلص منه بعد أن ثبت له أن الملك القاهر يجمع حوله الأعوان والأنصار لإثارة الفتن؛ فأرسل في طلبه على أن يوافيه في دمشق قائلا له أنه يرغب في التداول معه في شئون الدولة!

وكان الشيخ خالد في أثناء ذلك قد تمكن من إقناع ابنته وسيمة بأن تتظاهر بالقبول، وتطلب من الملك الظاهر بيبرس أن يؤجل عقد القران إلى حين، ريثما تضع الحروب أوزارها ويخيم السلام على سورية ومصر.. ووعد الشيخ ابنته بأنه سينتحل لها فيما بعد عذرا ينقذها من زواج لا ترغب فيه. ولكنه كان في الواقع عازما على إلقائها بين يدي حليفة القوي الجبار، واثقا أنها سوف ترضى بما قدر لها عندما تصبح سيدة نساء القصر الملكي بمصر!

وكانت الفتاة تقيم في دمشق مع أمها المصرية في دار قريبه من القصر الأبلق، الذي كان ينزل فيه بيبرس عندما يحل بأرض الشام وهناك في تلك الدار كانت الفتاة تلتقي بابن عمها سليمان..

***

وفي سنة ٦٧٦ هجرية الموافقة لسنة ١٢٧٨ للميلاد ظهر في الفضاء نجم مخيف يحيط به شعاع باهر ويتطاير منه شرر عجيب ثم يخسف القمر خسوفا تاما فتكهن المنجمون بأن رجلا جليل القدر عظيم الشأن سوف يموت في ذلك الشهر، شهر المحرم من تلك السنة! وتساءل الناس قائلين: "أيكون ذلك إشارة إلى موت الملك الظاهر بيبرس البندقداري أم أن هناك رجلا آخر سيحل به القضاء؟"، ودفع الملك الظاهر من ذلك التكهن لمخيف، وعزم على السعي إلى تحقيقه في رجل سواء! وكان قد دعا الملك القاهر لموافاته في دمشق، فعول على قتله في الحال لكي يتحقق فيه ذلك التكهن، كما عول على الرحيل إلى مصر في أقرب وقت بعد أن ينظم شئون البلاد التي أخضعها بمعونة حلفائه من أبنائها. ولكنه أراد أن تسبقه زوجته المقبلة وسيمة ابنة خالد النبكي إلى مصر حيث تستعد مع نساء القصر لليوم العظيم.

وأصدر أوامره بإعداد هودج فاخر يحمل الفتاة إلى مصر، وتحرسه في الطريق كوكبة من الفرسان ووقع هذا القرار على وسيمة وسليمان وقع

الصاعقة، وقطعت الفتاة كل أمل في النجاة. ولكنها قالت لابن عمها وهي تودعه قبل رحيلها بيوم واحد: ثق يا ابن العم أنني لن أكون لسواك

***

وصل الملك القاهر الأيوبي إلى دمشق فاستقبله الملك الظاهر بيبرس بالترحيب، وأنزله ضيفا عليه في القصر الأبلق بجوار الميدان الأخضر، وأمر غلمانه بأن يعدوا له ولضيفه طعام العشاء في قاعة منعزلة، وأن يمنعوا الناس عنهما في تلك الليلة. وعهد السلطان إلى بعض رجاله في حراسة الأبواب طول الليل وكان سليمان ابن عم وسيمة أحد أولئك الحراس.

ودخل الملك الظاهر بيبرس إلى القاعة ودخل على أثره الملك القاهر، وجعل الغلمان يروحون ويجيئون حاملين ألوان الطعام والشراب من كل ما لذ وطاب، وفجأة طرقت الآذان أصوات استغاثة:

– إلي ! ... إلي ! ... السم ! ..... السم ! .....

ودخل الحراس مهرولين إلى القاعة، فإذا بهم أمام الملك القاهر وقد سقط على الأرض وجعل يتقلب كأنه أصيب بمس من الجنون! وأشار إليهم الملك الظاهر إشارة عقدت ألسنتهم عن النطق فأدركوا أن مولاهم دس السم لضيفه في الشراب!

وبينما هم يحملون الملك القاهر الأيوبي وقد أصبح جثة هامدة، تناول الملك الظاهر بيبرس قدحه وتجرعه دفعة واحدة! وما كاد الحراس يخرجون بجثة الضيف حتى طرقت آذانهم صيحات المضيف:

– إلي ! ... إلي !... السم ! ... السم !

فألقوا بالجثة على الأرض وعادوا مسرعين إلى القاعة وإذا بهم أمام بيبرس يتلوي من الألم ويصيح: السم! السم!.. قائلا:

– لقد أخطأت فشربت من الكأس المسمومة التي سقيت عدوي بها الخمر!

***

كانت وسيمة بنت خالد النبكي متكئة على وسادة تمسح الدموع الساقطة من عينيها، وهي تفكر في حبيبها الذي قضي عليها أن تفارقه إلى الأبد، وإذا بصوت ذلك الحبيب يرن في أذنيها: "وسيمة! وسيمة!"

– سليمان! ما جاء بك الآن إلى هنا وعهدي بك في القصر الأبلق؟

– وسيمة لن تسافري إلى مصر!

– ماذا تقول؟

– ولن تصبحي زوجة للملك الظاهر!

– لا أفهم!

– لقد مات بيبرس!

– مات؟

– مات مسموما شرب من الكأس التي وضع فيها السم للملك القاهر ومات في أثره!

– وأصبحت أنا...

– وأصبحت أنت حرة يا وسيمة!

– حرة؟ حرة؟

رددت الفتاة تلك الكلمة العذبة: "حرة! حرة!" ثم خفت صوتها، عيناها، وتصلب جسمها، وعلا جبينها الاصفرار، وارتسمت في شفتيها ابتسامة بلهاء.

ورنت في أرجاء الغرفة ضحكة عالية متواصلة، ضحكة ارتعدت لها.... سليمان، ضحكة لا تصدر عن شخص مالك لقواه العقلية فقد كان ذلك الخبر الفجائي الذي حمله سليمان إلى حبيبته شديد الوقع بها، فلم تقو المسكينة على احتماله!

تمايلت يمينا ويسارا، ثم هوت، فتلقاها ابن عمها بين ذراعيه ونادى الخدم، وعلت الضوضاء في قاعات الدار.. وعندما صحت من إغمائها صارت فاقدة العقل!

***

مات الملك القاهر الذي حاول الاعتداء عليها مسموما!

ومات الملك الظاهر الذي رغب فيها مسموما أيضا.

وبقيت وسيمة بنت خالد النبكي مجنونة!.

آل ذلك في ليلة واحدة!

مشاعل الفردوس

الحب قريب ممن أنكره، والكره والحب يوحيان بالانتقام!

خرجت جحافل التتر من مكامنها فوجاً بعد فوج وتدفقت على الأقطار الأسيوية حتى غمرت الدول المجاورة وجرفت عروشها عرشاً بعد عرش، وكان يقود تلك الجحافل في زحفها الرهيب رجل أعرج، ربع القامة، نحيف الجسم، ضخم الرأس، واسع الجبين، أبيض البشرة، أحمر الوجنتين، عريض الكتفين، متين العضلات، شجاع لا يهاب الموت؛ يعرف كيف يصدر أوامره ويجعلها مرعية التنفيذ، ذلك هو القائد التتري "تيمورلنك" الذي أعد جيشه لفتح العالم، وتوحيد الممالك المعروفة وغير المعروفة، في دولة واحدة يتبوأ عرشها، ويخلفها لأبنائه..

من ذلك الفاتح ومن أين جاء؟

ولد بالقرب من سمرقند، في سنة ٧٣٦ للهجرة، الموافقة لسنة ١٣٣٦ للميلاد، وهو ابن زعيم من زعماء القبائل التترية، يدعى طرقاي يمت بالقرابة إلى أسرة جنكيز خان المغولية التي أنشأت إمبراطورية المغول الأولى، فجاء تيمورلنك بعدها بأكثر من مائة سنة لينشئ الدولة الثانية التي عرفت بدولة التتر أو التتار، فالمغول والتتر أبناء عمومة.

وقد جمع تيمور لنك بين الرقة والقسوة، واللطف والعنف، والميل إلى التخريب والرغبة في التعمير، فكان كتلة من الخصال والعيوب المتناقضة المتباينة.

قضى معظم حياته في الحروب!

وفي سنة ١٤٠٠ للميلاد، الموافقة لسنة ٨٠٣ للهجرة، كان "تيمور" الأعرج قد أخضع آسيا الوسطى بأسرها، ودوخ منافسيه في خراسان وإيران وتركستان وأذربيجان وغيرها من الممالك الإسلامية والمسيحية، وقضى على البقية الباقية من أسرة "جنكيز خان" الذي سبقه وحمل قبله لقب "ملك الملوك"، ووقعت عيناه على الحسناء "زهرة خاتون" ابنة أمير من سلالة تلك الأسرة في بلاد فارس، فقرر إرسالها إلى سمرقند زوجة لحفيده "بير محمد"

وسافرت الأميرة المغولية في موكب رائع، مزودة بالمال والهدايا، واصطحبت معها فريقاً من الوصيفات والخادمات؛ بينهن فتاة عربية من الديلم، تدعى "فاتحة" وهي ابنة شيخ من شيوخ البادية، كان يقيم في بغداد، ثم رحل عنها على أثر خلاف بينه وبين حكامها ولجأ إلى فارس حيث أضافه المغول وأمنوه على حياته، فلما مات بقيت ابنته في خدمة "زهرة خاتون" فكانت تقاسي مر العذاب في كنف تلك الأميرة المغولية المتعجرفة التي زادتها هزيمة أهلها في الحروب حنقاً على الناس، فراحت تنتقم من حاشيتها عما أصاب أسرتها من كوارث وويلات!

لم تفرح الفتاة العربية عندما كاشفتها سيدتها بعزمها على اصطحابها معها إلى سمرقند، ولكنها اضطرت إلى قبول السفر مرغمة، وقالت في نفسها: "قد يكون الرحيل خيراً من البقاء. وقد أجد في سمرقند مخرجاً من الحالة التي أنا فيها هنا!"

ورحلت "فاتحة" مع الركب الذي رافق "زهرة خاتون" إلى عاصمة الدولة التترية، حيث كان "بير محمد" حفيد تيمور الأعرج يرقب قدوم الزوجة التي وعده بها جده.

***

أرسل تيمورلنك عروساً لحفيده، وواصل زحفه شمالاً وجنوباً وغرباً؛ فأحرق مدينة بغداد، واجتاح سورية، وهزم جيشاً من المماليك حاول أن يصده عنها بالقرب من حلب، ودخل دمشق فاتحاً فأشاع فيها الخراب. واعترضه السلطان العثماني بايزيد فنازله تيمورلنك في سهل أنقرة، في سنة ١٤٠٢ ميلادية، الموافقة لسنة ٨٠٥ للهجرة، وتغلب عليه، وشتت شمل جيشه، وساقه أسيراً ذليلاً في قفص من حديد، ومات السلطان من الحزن!

وقفل تيمورلنك راجعاً إلى سمرقند، بعد أن عدل عن مواصلة الزحف على مصر، لأسباب لا تزال غامضة. في ذلك الوقت بالذات، كان العباسيون في طور الانحطاط ببغداد، والمماليك البرجية يحكمون

مصر، وممالك الأندلس العربية تسير نحو نهايتها، والعثمانيون يضيقون الخناق على القسطنطينية عاصمة الدولة الرومية الشرقية.

بالرغم من مرور أكثر من سنة على وصول الأميرة المغولية إلى العاصمة سمرقند، فإن حفيد الفاتح العظيم لم يكن بعد قد عقد زواجه عليها، بل انتظر عودة جده، ليكون العيد مزدوجاً فتفرح البلاد بقدوم عاهلها وبزواج حفيده في آن واحد.

وحلت "زهرة خاتون" في قصر أعده لها خطيبها في إحدى ضواحي المدينة، وفي وسط حدائق غناء، فيها من كل زهر وكل فاكهة، وحلت معها في ذلك القصر وصيفاتها وخادمتها اللواتي جئن معها من فارس.

ولكن ما مرت أسابيع على اقامتهن جميعاً في سمرقند، حتى خيل إلى "فاتحة" العربية أن سيدتها تنظر إليها شزراً، وأنها لم تعد تكاشفها بمكنونات صدرها، أو تأتمنها على خبر.

ولم تكن الفتاة مخطئة في ظنها، فقد فطنت الأميرة المغولية إلى أن وصيفتها قد لقيت حظوة في عيني خطيبها الشاب، وأنه يبالغ في ملاطفتها ويخصها بالعطف والهدايا دون سواها من نساء القصر!

وكانت "زهرة خاتون" تعلم أنه ليس بوسعها إرغام زوجها المقبل على الاكتفاء بها زوجة وخليلة ومحظية، وأن قصره سيكون عامراً بالنساء من كل جنس ولون؛ مثل قصر أبيه، ولكنها كانت تأمل أن تكون الوحيدة

المسيطرة على قلبه بين ساكنات القصر، بالنظر إلى نبل محتدها، وإلى أنها أميرة وابنة أمير وحفيدة ملك فهل تكون تلك الفتاة العربية السمراء مزاحمة لها في ذلك السلطان الذي تتوق إليه.

حقدت المغولية على العربية لهذه الأسباب كلها، وعولت على وقف غريمتها عند حدها، ولكنها لم تجرؤ على مصارحة خطيبها بشيء، ولا على تأنيب "فاتحة" لأن في هذا التأنيب رفعاً لشأن العربية الخاملة، فاكتفت بتشديد الرقابة على الشاب والفتاة، لكي تتوافر لها الأدلة والبراهين، فتضرب في النهاية ضربة تريح بها نفسها من كل مزاحمة، وتبدد بها المخاوف التي تساورها وتنغص عليها الحياة...

وتوافرت تلك الأدلة والبراهين، فقد رأت "زهرة خاتون" بعينيها، وسمعت بأذنيها، ولمست بيديها، ما أثبت لها أن الأمير التتري لا يحمل لها في صدره أكثر من الاحترام لأنها من أسرة "جنكيز خان" ولا ينوي اتخاذها زوجة له إلا نزولا على إرادة جده، ورغبة منه في مزج دمه الملكي بدمها الملكي، أما قلبه فإنه عازم على أن يهبه إلى الفتاة العربية، بل أنه قد وهب لها ذلك القلب وخصها بحبه قبل أن يتم الزواج وتقام الأفراح!

إذن، ستكون "زهرة خاتون" الملكة الجالسة على عرش الملك، أما "فاتحة" فستكون الملكة المتربعة على عرش الحب. و"زهرة خاتون" تريد

الاستئثار بالعرشين، وتريد زوجها لها وحدها.. وما دام الأمر كذلك، فلا بد من إزاحة الغريمة من الطريق!

***

ألقى "تيمورلنك" عن منكبيه أعباء الملك، ودعا الشعوب الخاضعة له إلى التنعم بالمسرات والملاذ مدة شهرين كاملين، وطاف المنادون في المدن والقرى والحقول، وفي شوارع سمرقند وميادينها وأزقتها، يتلون على الناس نص الأمر الملكي السامي:

"الدنيا كلها في فرح ومرح، لمناسبة الاحتفال بزواج بير محمد، حفيدنا المحبوب؛ فلينبذ الناس ضغائنهم وأحقادهم، ولينسوا ما بينهم من خلاف وعداء، فكل خصومة محرمة لمدة شهرين. وليس لغني في خلال هذه المدة أن يطالب بحقه من الفقير، ولا لقوي أن يلجأ إلى القوة تجاه الضعيف، ولا لأحد الناس أن يطالب أحداً بشيء أياً كان نوعه، فكلوا واشربوا واضحكوا وارقصوا وتنعموا، ولا تفكروا في النفقات فكلها من خزينة الملك!"

وأقيمت حفلة العرس الكبرى في قصر شيده "تيمورلنك" في وسط المدينة، حجارته كلها من المرمر، وداخله مزين بالفسيفساء، وخارجه مغطى بالخزف الملون، وكانت المياه تغرد في أحواض مموهة بالذهب والفضة، ومرصوفة بالجواهر، وفي حجرات القصر وأبهائه ودهاليزه وعلى سطوحه، وفي وسط الحدائق بين الأشجار الوارفة المثقلة بالأثمار

صفت الموائد ورصت عليها أكداس مكدسة من كل ما يمكن أن تشتهيه النفس من طعام وشراب. ودعي الناس إلى الجلوس إلى تلك الموائد ليلاً ونهاراً بلا انقطاع، ونصبت حول القصر مئات من الخيام لإيواء الضيوف الوافدين من كل فج وصوب، وكانت أطناب الخيام من الحرير المجدول حبالاً، وأوتادها من العاج، وأعمدتها من النحاس والفضة.

وفي تلك الخيام حل ثلاثون ملكاً وملكة، وأميراً وأميرة، ومئات من عظماء الدولة قواد جيوشها وحكام مقاطعاتها، ونصبت مضارب خاصة للشعراء والمغنين، وللضاربين على الدفوف والنافخين بالمزامير، وطافت في المدينة جماعات من سكان الجبال يلعبون بالسيوف ويعرضون على الأنظار أغرب ما وقعت عليه العين من زواحف وحيوانات أليفة ووحوش ضارية. وغصت الأسواق بمختلف السلع والمنتجات المرسلة من مصر ولبنان وسورية وجزيرة العرب وبلاد المغول والترك والصين. وجردت خمس غابات كثيفة من أشجارها لتوفير الوقود في المطابخ، ووصلت إلى سمرقند، في نهاية الشهر الأول وفود من الغرب تحمل الهدايا من ملوك أوروبا وأمرائها، يتقدمها وفد ملك إسبانيا برياسة "غونزالس كلامنجو"، ووفد ملك فرنسا، ووفد البندقية، وطرد الظلام طرداً مدة شهرين، فقد علقت المصابيح في الأغصان، وركزت المشاعل في الأرض فكانت أنوارها تضئ المدينة من غروب الشمس في المساء حتى شروقها في الصباح!

ووقف "تيمورلنك" خطيباً في مدعويه في ختام الشهرين، فقال لهم: "لقد حولت لكم عاصمتي إلى فردوس أرضي، والآن ستضرم النار في المشاعل التي أعددناها لليلة الختام، وينطلق اللهيب من الخنادق التي حفرناها لهذا الغرض وملأناها بأثمن أنواع الخشب والأعشاب المعطرة، والأزهار المجففة، وعيدان الند والبخور؛ فودعوا الفردوس الليلة، واحتاطوا من النيران، وابتداء من الغد ليعد كل منكم إلى بلده ويستأنف عمله، لأن تيمورلنك نفسه سيمتطي من جديد صهوة جواده وينطلق إلى الأمام من ناحية الشرق لدك أسوار الصين وإخضاع ملوكها. وألقوا، قبل إضرام النار في المشاعل، نظرة أخيرة إلى العريس والعروس!"

وعند باب القصر، في أعلى السلم ذي الدرجات الذهبية، تجلى للجمهور المحتشد منظر لم تقع العين على مثله؛ فقد تقدم العريس "بير محمد" يرتدي ثوباً سداه من خيوط الذهب ولحمته من خيوط الفضة، وإلى يساره أسد أليف على هامته تاج مرصع بالجواهر وإلى يمينه العروس "زهرة خاتون" مغطاة من الرأس إلى أخمص القدمين بخمار رسمت عليه أنامل ساحرة صورة الشمس والقمر والكواكب والنجوم، كل منها بنوع من الحجارة الكريمة يختلف عن الآخر. ورفعت العروس الخمار تسع مرات، ووضعت غيره تسع مرات، وكانت في كل مرة تلقي الخمار في يدها، فتتلقفه أيدي الوصيفات فيلقين به إلى الجمع المحتشد أمام القصر، لكي يتقاسم الناس شموسه وأهلته، وكواكبه ونجومه!

وأضرمت النار في المشاعل، فتصاعد اللهب من كل صوب، واندفعت ألسنته الحمراء وسط سحاب كثيف من الدخان تشق طبقات الجو وتلعق كبد الفضاء! وارتفعت فجأة، من أحد أركان الحديقة وعلى مقربة من سلم القصر، صيحات منكرة تنم عن رعب وهلع!. وتدافع الناس نحو مصدر الصوت لاستطلاع الخبر، ويا لهول ما رأوا!.

في أحد الخنادق المشتعلة، وهو أوسعها وأعمقها، سقطت فتاة من الوصيفات فالتهمها ذلك الأتون المتأجج قبل أن تتمكن رفيقاتها من إنقاذها، وهل كان في وسع أحد إنقاذها!؟

تلك كانت نهاية "فاتحة" العربية ابنة الشيخ الديلمي، في سمرقند التترية، ليلة الاحتفال بزفاف الأمير الذي أحبها وأحبته...

***

هل يئست الفتاة من الحياة فأقدمت على الانتحار بإلقاء نفسها في النار، أم أن غريمتها المغولية المتعجرفة "زهرة خاتون" قد نصبت لها شركاً، ودفعت بوصيفاتها إلى قتلها في ذلك المهرجان، على تلك الصورة الفظيعة؟.. لقد حزن "بير محمد" عليها حزناً شديداً ، وراح يسأل ويحقق ويعد ويتوعد، لعله يتمكن من تمزيق الستر عن غوامض ذلك الحادث، ولكنه فشل في مساعيه، غير أن رواية الانتحار لم تقنعه. وظل شبح الحبيبة العربية حاجزاً بينه وبين زوجته المغولية، وإذا بسكان سمرقند ذات يوم يعلمون أن زوجة أميرهم المحبوب "زهرة خاتون" وجدت ميتة

في فراشها، وتهامس الناس فيما بينهم متسائلين: "هل ماتت الأميرة المغولية حتف أنفها؟ أو أخمدت يد مجهولة أنفاسها؟ انتقاماً للفتاة العربية فاتحة؟"

نسرين وتيمورلنك

هل انتحرت، أم قتلتها يد مجهولة؟

تلك الأميرة الشقراء التي غزت بحبها قلب الفاتح الشرير؟...

كان يدعي بأنه يمت بالنسب إلى أسرة الفاتح المغولي جنكيز خان، وأنه من سلالة العذراء الاكوفا، التي حملت بفعل النور وأشعة الشمس المشرقة!.. تيتم وهو صغير، وجرده جيرانه من المال والسلطة، ولكنه استعاد مكانته بسرعة، وبعد أن عرف الشقاء وعانى الفقر والذل، ضحك له الحظ فانطلق من تركستان، في قلب آسيا، لغزو العالم الشرقي والغربي!

ذلك الحظ الضاحك ظل يلازمه حتى الأيام الأخيرة من عمره، وخيل إليه أنه قد استعبد الزمن كما استعبد الشعوب، قوة وقسرا؛ فدانت له هذه كما دانت له تلك، واعتقد أنه لن يلاقي في الأعمال التي يقدم عليها غير النجاح والفلاح، فكانت هذه الثقة بالنفس أقوى عامل فيما أحرزه تيمورلنك – أو تيمور الأعرج – من انتصارات على أعدائه البعدين والمنافسين القريبين.

حياته كلها سلسلة غير متقطعة من الحروب والغزوات والفتوح، مصحوبة بفظائع لم يذكر التاريخ أبشع منها. حالف جيرانا ليستعين بهم على جيران آخرين، ثم انقلب على حلفائه بالأمس بعد أن نال منهم وطره؛ فالخيانة في عرفه كانت مثل المذابح جزءا متبعا للسياسة الحكيمة!

بدأ بالسيطرة على بلاد تركستان، وتوغل في البقاع المحيطة ببحر قزوين واستولى على خراسان وهراح وجبال القوقاز، وأخذ إيران وتوغل في بلاد الأفغان، وهاجم أطراف الإمبراطورية العربية، واحتل العراق وخرب بغداد، وانطلق إلى سورية، ثم تحول إلى أوروبا، فمشى على ساحل بلاد القرم، وأرسل حفيده "محمد" إلى بولونيا فدخلها ورفع أعلام النصر على ربوعها! وعاد إلى الشرق، فهاجم السلطنة العثمانية وهزم عاهلها بايزيد، وأخذه أسيرا في قفص من حديد. واجتاح الهند وهم بغزو الصين، فأدركه الأجل قبل أن يحقق هذا الحلم ومات في سنة ١٤٠٥ للميلاد، الموافقة لسنة ٨٠٨ للهجرة، ونقل جثمانه إلى سمرقند عاصمة إمبراطوريته فدفن فيها..

استغرق ذلك كله نحو أربعين سنة، قضاها تيمور الأعرج على متن جواده، يضرب يمينا ويسارا، ينتهي من حرب لكي يشعل نيران حرب أخرى، وينتقل من فتح إلى فتح، ويربط غزوا بغزو. ولما مات، كان في التاسعة والستين من العمر، تزوج بضع نساء، وأحاط نفسه بمحظيات لا عدد لهن، ورزق بأبناء كثيرين، بعضهم معروف وبعضهم مجهول؛ فتقاتلوا

على ملكه بعد موته، وبددوا الإرث الذي تركه لهم، وهذا ما يحدث عادة بين أبناء كبار الفاتحين!

بين الحسان اللواتي عشن في كنفه تيمورلنك، حليلات أو خليلات، واحدة قيل أنه أحبها، وهو الذي كان يهزأ بالحب ويسخر من العشاق، وتلك الحسناء التي أحبها تيمورلنك لم تلازمه أكثر من بضعة أيام، ولكنها أيام تركت في حياة الفاتح المحظوظ أثرا عميقا، وجعلت قلبه القاسي يخفق بأنبل وأشرف وأرق عاطفة تخفق بها قلوب البشر!

حدث ذلك في مدينة الموصل بالعراق، بين مرحلتين من مراحل حروبه، أو بين معركتين من معاركه، في عام ٧٩٤ للهجرة، الموافق لعام ١٣٩٢ للميلاد، بعد أخذ بغداد حرقها وذبح سكانها وبيع الأسرى والسبايا في أسواق الرقيق!

كان تيمورلنك في السادسة والخمسين، ولكنه لا يزال يحتفظ بصفاء الذهن، ومتانة الجسم، وكامل الصحة والعافية. في هذه السن، وفى تلك السنة، حدث أن أتت المصادفات في طريقه بفتاة تضاربت المصادر في تحديد البلد الذي جاءت منه، والظروف التي أوجدتها في مدينة الموصل حين دخلها تيمورلنك بجيشه، وفعل ما فعله ببغداد! اسمها "نسرين" والاسم يتفق مع المسمى؛ فالفتاة زهرة نضرة عطرة، بلغت العشرين أو هي دونها، تنتمي إلى أسرة مسيحية من بلاد الكرج المعروفة بجورجيا، أو من جبال القوقاز، أو من أرمينيا، أو من النجد

الذي يعتصم فيه الأكراد مع جماعات من النصارى الباقين على خلافاتهم المذهبية بعضهم مع بعض..

كانت بيضاء البشرة، موردة الخدين، زرقاء العينين، شقراء الشعر في بلد يطغى فيه اللون الأسمر، تجيد التحدث بالعربية والتركية والأرمينية واللهجات المتفرعة من هذه اللغات. كان أبوها من أسياد قومهما، قتلهما الجنود التتر، ولم يبق من أهلها أحد، ولم يعد لها سند ولا معين فساقها الغاصبون إلى السوق لبيعها مع العشرات والمئات من العذارى الأسيرات.

هناك وقعت عليها أنظار تيمورلنك، الذي كان يلذ له دائما – بعد كل انتصار وكل مذبحة – أن يطوف في الشوارع والطرقات والميادين بين الخرائب المتراكمة والدخان المتصاعد من بقايا الحرائق، ولا يفوته أن يمر على سوق الرقيق أو يأمر بأن تعرض عليه السلع البشرية ليختار منها ما يروقه قبل أن يتصرف فيها قواده وجنوده، وتتلقاها أيدي النخاسين ..

فلم رآها معروضة للبيع في السوق أو جاءوا بها إليه مع من جاءوا إليه من السبايا، إلى المخيم المضروب في ظاهر المدينة، رآها فأعجبته.. بل أنها فازت منه بأكثر من الإعجاب، فازت بالتفاتة أسفرت عن عطف، وعطف تحول بسرعة إلى حب..

رآها وقد أرخت شعرها الطويل على صدرها لتغطيه، ورفعت إليه نظرات فيها مزيج من الخوف والتوسل والأمل. لحظة واحدة كانت كافية لكي يحرك منظر الفتاة في صدر الطاغية كوامن المشاعر النبيلة الرقيقة، التي لا يخلو منها صدر إنسان مهما يكن شريرا قاسي الفؤاد..

بإشارة منه، فهم حراسه أن سيدهم يريد الأسيرة الحسناء لنفسه، وفى مساء ذلك اليوم كانت نسرين في خيمة تيمورلنك ، بهية الطلعة مزينة معطرة!

وحدث ما أثار الدهشة والتساؤل حول الرجل القوي والمرأة الضعيفة فقد مرت الأيام بلياليها تباعا، نهار بعد ليلة، وليلة بعد نهار، وتيمورلنك في داخل خيمته لا يخرج منها، يطلب الطعام والشراب له وللفتاة التي حبس نفسه معها في مخدعه...

أصدر أوامره بألا يزعجه أحد إلا إذا اقتضت ذلك مصالح الدولة الملحة، أو طرأ على الجيش ما يدعو إليه. ونفذ القواد ورجال الحاشية إرادة العاهل التي لا تناقش، وانتشر اللفظ بين النساء في أخبيتهن المنصوبة حول خيمة تيمورلنك..

إذا كان تيمورلنك قد انقطع عن الناس، وأمر بأن لا يزعجه أحد من رجاله، واختار لنفسه العزله مع فتاة أعجبه جمالها، فما ذلك إلا لأن الحب قد غزا قلب الرجل الذي غزا بجيوشه الشرق وطرق بها أبواب

الغرب! الحب الذي كان تيمور الأعرج يجعل منه مادة للهزء والسخرية تغلب في النهاية عليه وقهره!

امرأة احتكرت تفكير الفاتح الذي يلعب بمصير العالم...

سيطر على الشعوب فسيطرت عليه فتاة يتيمة غريبة!

الفؤاد الصلب خفق بأشرف عاطفة: تيمورلنك أصبح مغرما!

وإذا كان هذا ما يدعو إلى العجب، فالأعجب منه أن يخفق قلب امرأة بحب تيمورلنك، الفظ الغليظ القصير الأعرج الذي يجمع في شخصه كل ما يمكن أن يوجد من قبح في رجل من البشر!

مضجع الفاتح الدموي تحول إلى عش غرام، ومرت أيام أخرى، وتزايد اللغط وتكاثرت الشائعات

***

وفى ذات صباح حدث ما لم يكن في الحسبان: مفاجأة مثيرة أحيت في صدر تيمورلنك غرائزه الشريرة، وحولت الإنسان العاقل إلى حيوان بهيم، والرجل المغرم إلى وحش مفترس!

علت صيحات الملك في داخل خبائه وهرع الرجال والنساء ملبين النداء، فإذا بهم يقفون جامدين أمام منظر رهيب بعث الرعب في

نفوسهم: تيمورلنك على سريره يحتضن جثة هامدة ويوالى الصياح كأن مسا من الجنون قد أصابه!.. ماتت نسرين وهو يغمر وجهها بالقبلات. كيف ماتت؟ ولماذا ماتت؟.. هل قتلها الرجل في نوبة من نوبات هياجه الجنوني؟ أو دست لها يد مجهولة السم في الطعام، انتقاما منها وعقابا لها؟

السر ظل غامضا، والستار أسدل على المأساة دون أن يفهم المشاهدون أسباب الخاتمة المفجعة! تحول صياح تيمورلنك إلى زئير، وانطلق صوته، بين صيحة وأخرى، يصدر الأوامر ويلح في التنفيذ. وتساءل السامعون: هل فقد الملك صوابه؟ وهل هذا الذي يقوله دليل جديد على أن تيمورلنك كما وصفه طبيب عربي معاصر له، مزيج من العبقرية والجنون؟

- اجمعوا النساء والفتيات، المتزوجات منهن والعذارى، الحرائر والجواري، الأرامل وبنات الهوى، واجمعوا معهن المراهقين من الفتيان، واذبحوهم ذبح الأنعام، وواروا جثثهم في التراب حول المكان الذي تدفنون فيه نسرين الأميرة الحسناء التي أحببتها وأحبتني.. هذه إرادتي.. وغدا.. سوف نستأنف الزحف غربا، لإخضاع البقية الباقية من العالم لإحكام التتر!

قال تيمورلنك هذا، وبكى. بكى بعد أن قرر ذبح الأبرياء، وبكي من حوله أفراد أسرته ورجال حاشيته. هل بكوا متأثرين بحزنه؟ أم بكوا خبثا، أو رياء، أو خوفا؟

في الموصل، دفنت نسرين الأميرة المسيحية التي أحبها تيمورلنك وأحبته، ودفن معها حب تيمورلنك الوحيد! ولو بحث الباحثون، ونقب المنقبون، في المدينة العراقية، عند المكان الذي ضرب فيه التتر مضاربهم في ذلك الوقت، فإنهم قد يعثرون على بقايا الضحية الأولى نسرين، وبقايا الضحايا الكثيرة الأخرى، من نساء العراق وبناته، اللاتي دفنهن جنود الطاغية تنفيذا لرغبته.

قد يعثرون على شيء من هذا وربما لا يعثرون على شيء؛ فقصة الأميرة نسرين والفاتح التتري، قد تكون من الوقائع المهملة في التاريخ وقد تكون من الأساطير! ولكن كم من الأساطير في كتب التاريخ، وكم من وقائع التاريخ في سجلات الأساطير! وما أكثر الحوادث التي يختلط فيها التاريخ بالأسطورة في حياة تيمورلنك الفاتح التتري الذي اجتاح رقعة من العالم العربي وعجز عن اقتحام الرقعة الأخرى، فوصل إلى وادي دجلة والفرات، ووادي بردى ورجع على أعقابه دون أن يصل إلى وادي النيل، ثم أفل نجمه وغاب.. وبقيت ذكراه يلعنها الناس كلهم أجمعون.

خنجر السلطان

ذبح السلطان حبيبته بيده، ثم ذبح الرجل الذي وشى بها لديه!

تلك كانت عدالة الطغاة !

- إياك أن تكون كاذبا يا فيروز أغا!

- إن حياتي بين يديك يا مولاي!.. وهل أعطاك فيروز يا سيدي حتى الآن دليلا واحدا على أنه غير صادق في كل ما نقله إليك؟

- إذن سنلتقي عند الباب الصغير الذي أشرت إليه، في الساعة التي حددتها.

- سأكون في انتظار مولاي، في المكان وفى الموعد.

- إن كان ما تقوله صحيحا، فسأذبح الخائنة بيدي، وإن كان ما تقوله كذبا فسأذبحك أنت!

وضع السلطان محمد الفاتح يده على خنجره الذهبي وهو يفوه بهذا التهديد، موجها نظراته الحادة إلى العبد الواقف أمامه في خشوع

وإشارة إليه بالانصراف فانصرف، وأمسى السلطان قلقا مضطربا فالخبر الذي أفضى به إليه عبده المفضل الأمين من النوع الذي يحرك في النفس مشاعر الغضب والحقد في آن واحد.

إن الزمن يضحك لسلطان العثمانيين محمد الثاني، ولاطفه ويسايره ويمهد له السبيل لتحقيق مطامعه وبلوغ أهدافه، فهو لا يتصور كيف يجرؤ شخص على مخالفة رغائبه وعصيان أوامره والخروج عن طاعته، خصوصا إذا كان ذلك الشخص امرأة!

لقد اجتاح بجيوشه الأقطار والأمصار، ودك الحصون وهدم الأسوار وفرض حكمه على الأقوام الذين شاء سوء طالعهم أن يوجدوا في طريقه، وافى أعداءه في بر الأناضول، وسيطر على مشارف البوسفور ودوخ الروم حتى وصل إلى عاصمتهم "القسطنطينية" أو "بيزنطة" فانتزعها منهم بعد حصار طويل، وقتال مرير، ودخلها دخول الفاتحين، وقد غاصت قوائم جواده في بحيرة من الدماء! والآن تعصاه امرأة! فمن هي؟ وماذا فعلت؟.. إنها غريبة عنه، وقريبة منه في آن واحد! ليست من قومه، ولا من رعيته، ولا من بلده، ولا هي تدين بدينه، ولكنها تحبه، وهو أيضا يحبها!

وعدها بأن يجعل منها في مستقبل الأيام ملكة، أن أنجبت له ولدا فكيف تعصاه؟

***

في التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٤٥٣ – الموافقة لسنة ٨٥٧ للهجرة – وثب محمد الثاني على أسوار القسطنطينية وثبته الأخيرة القاضية، وكان في الثالثة والعشرين من عمره، وفي السنة الثانية لارتقائه العرش خلفا لأبيه مراد الثاني، وقد لقب بالفاتح بعد استيلائه على المدينة العظيمة التي دب فيها الخلاف بين المدافعين عنها، فكان عاملا من عوامل سقوطها الكثيرة، وذهب مثلا على الألسنة ، فسمي "الجدل البيزنطي" وهو يرمز إلى قوم يتناقشون في توافه الأمور ووطنهم يحدق به الأعداء. وعجز إمبراطور الروم قسطنطين الحادي عشر عن دفع الهجوم الهائل، فصعد إلى الأسوار وسقط في المعمعة والسيف في يده.

ألقى الروم السلاح في كل مكان، ورحل من قوادهم وزعمائهم من الواقع عشرات القصور، تشرف على المضايق وينتهي منها البصر إلى الهضاب البعيدة الخضراء. وانصرف العاهل المحظوظ في الحال إلى تنظيم ممتلكاته الجديدة.

***

وفى أجنحة القصور المخصصة للحريم، كان عدد النساء يزداد يوما بعد يوم. وكان أباطرة الروم يستخدمون الخصيان بكثرة، فاحتفظ محمد الثاني بمن بقي منهم، وحدث ذات يوم أن اقتحمت حلقة الحراس في موكب السلطان فتاة بارعة الجمال طويلة القامة واسعة

العينين، وصاحت من بعيد تطلب الحماية والأمان فأمر محمد الثاني بأخذها إلى القصر، اسمها "إيرينا" وهي ابنة تيودوروس قائد الحامية في أحد أبراج بيزنطة، ومدرب القناصة في جيش الروم، وزوج امرأة ذاع صيتها في المدينة منذ جاءت إليها من حلب لتمارس الطب. اسمها "أمينة" وهي عربية نصرانية، عالجت تيودوروس من تسمم أوشك أن يودي بحياته، فأحبها وتزوجها، وكانت "إيرينا" الحسناء ثمرة ذلك الزواج.

سافرت أمينة لزيارة أهلها في حلب، قبل أن تطوق الجيوش العثمانية عاصمة الروم، وحال حصار المدينة وسقوطها دون عودة المرأة إلى زوجها وابنتها، فبقيت عند أهلها في سورية. واختفى القائد تيودوروس في أثناء القتال، ولم يعد إلى بيته، ولم تعثر له ابنته على أثر بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وعاد الهدوء إلى المدينة الدامية، وتعذر على الفتاة الخروج وقد أصبحت وحيدة في هذا العالم، فباتت تندب حظها، وتنتظر الفرج من ربها!

ولكن حياتها تحولت إلى جحيم يكتنفه القلق، وضاقت الدنيا في وجهها، ففكرت في الذهاب إلى مقر الفاتح وطلب الحماية من السلطان نفسه! وقوبل طلبها بالرضا.. بل أن السلطان أعجب بما أبدته من شجاعة وأقدام، وهي الفتاة الوحيدة الضعيفة، فأمر بأن يخصص لها مكان ممتاز..

وشاءت عجائب الليالي أن يتحول إعجاب السلطان بالفتاة الجميلة إلى محبة، فحب فهيام! كانت النساء حول محمد الفاتح كثيرات، لكنه لم يكن بعد قد اختار منهن من يخلع عليها لقب "سلطانة" ويخصها بعطفه وحبه. وشعرت "إيرينا" بعاطفة جامحة نحو ذلك العاهل الشاب، القوي البنية، ذي الملامح الصادقة، والعينين المتقدتين الذي كان الناس يرتجفون خوفا منه، والذي بدا لها، بعد أيام معدودة من دخولها في حمايته كالحمل الوديع.

ودهش عظماء المملكة وقوادها، ورجال الحاشية على الخصوص، وأفراد الأسرة المالكة على الأخص عندما رأوا ذلك الشاب الذي ألقى المجد مقاليده بين يديه، وانقاد له النصر طائعا، يقع بمثل هذه السرعة العجيبة في حب فتاة لم يرها غير مرات معدودات، وبالرغم من وجود الحسان حوله بالعشرات والمئات. عهد محمد الثاني إلى فريق من المقربين إليه بالبحث عن والد الفتاة أو معرفة المصير الذي حل به، والوثوق من أنه حي مختبئ في مكان مجهول، أو ميت ضاعت جثته بين كومات الجثث التي خلفتها المعارك الطاحنة خلال الحصار.

وجاء الرد: لا يمكن العثور على أثر لتيودوروس مدرب القناصة. ولكن بعض الذين لازموه في أثناء القتال يؤكدون أنه مات في سبيل وطنه، والسيف بيده، مثل الإمبراطور الذي كان القائد قد وقف حياته لخدمته.. وبكت ايرينا حظ أبيها، ولكنها لم تذرف دمعة على حظها هي! فقد أحبت، وحبيبها يبادلها الحب، والناس جميعا يحسدونها على النعمة

التي أرادتها لها السماء، يوم دفعتها إلى اختراق صفوف الحراس والمثول بين يدي السلطان. وأراد محمد الثاني أن يكون الزواج شرعيا، وحدد يوما للاحتفال به!

كثيرون من عظماء الدولة كانوا يأملون أن يختار الفاتح الشاب زوجته من بين بناتهم، فحاولوا إفساد العلاقات بينه وبين حبيبته الرومية ولكنه لم يعرهم أذنا مصغية وظل باقيا على عزمه. وفجأة، حدث ما لم يكن في الحسبان! كانت الفتاة ذات مساء تتمشى في ممرات جناحها الخاص، كعادتها كل مساء، وإذا بامرأة مبرقعة يلفها رداء حالك السواد تقترب منها مستأذنة بالتحدث إليها:

- لا تظهري دهشة، ولا تبعثي من فمك صرخة، ولا تنظري إلى غيري، حدقي في وجهي جيدا...

وسكتت المرأة الغريبة لحظة خيل إلى الفتاة أنها دهر مديد! ثم سمعت إيرينا هذا الهمس يداعب أذنيها: "أنا أبوك!".. وفي ركن من أركان الشرفة التي خرجت إليها الفتاة ولحقتها المرأة، تيقنت إيرينا مما سمعته: أن أباها تيودوروس هو الذي يحدثها في هذه الخلوة، وقد جاء إليها متنكرا في زي امرأة، معرضا بذلك نفسه للموت في أية لحظة!

لم يقتل القائد في خلال المعركة وقد جاء الآن يدعو ابنته، وقد عرف ما حدث لها، لكي تهرب معه، أو تعده بالهرب وحدها، واللحاق به في مكان معين ليرحلا معا إلى بعيد!

وجدت الفتاة نفسها بين ناريين: بين الوفاء للحبيب الذي خصها بعطفه دون جميع النساء، والذي أحبته بكل جوارحها، وبين الوفاء للأب الذي جاء يطلب منها أن تترك القصر وزخارفه والعرش وأبهته، واللقب وإغراءه، وتهجر الرجل الذي هزم قومها وأذلهم وهدم ملكهم، وتذهب مع أبيها.

فكرت الفتاة في أمرها، ولم تتردد طويلا.. لقد آثرت الذهاب مع الأب على البقاء مع الحبيب! وضربت إيرينا لأبيها موعدا للقاء، في يوم معين، على ضفاف البوسفور، تحت شجرة يعرفها هو وتعرفها هي، كانت أمها تستعمل أوراقها في تحضير الأدوية والعقاقير.

***

أفضت الفتاة بسرها إلى وصيفة رومية مثلها، كانت قد اصطفتها من بين الوصيفات، واتفقت معها على أن تكون رفيقتها في هربها ليلا من القصر، ووافقت الوصيفة، ولكنها أفضت بدورها بالسر الرهيب إلى عبد من عبيد القصر، كانت تستخدمه لقضاء أغراضها، وتغدق عليه المال والهدايا.

وقديما عرف الناس وجربوا أن السر إذا ما تعدي شخصين لا يبقي سرا، وهذا هو ما حدث للفتاة الرومية حبيبة السلطان محمد الثاني.

رأى فيروز أغا، العبد اللئيم، أن الفرصة سانحة للفوز برضا ولاء السلطان، وهو الذي عهد إليه الفاتح منذ أن استقر في قصور الأباطرة الروم، باستطلاع الأخبار، ومراقبة الرجال والنساء، ونقل ما يعرفه من أسرارهم إليه، وأي سر جدير بالذكر والاهتمام أكثر من هذا السر، الذي ساقته المصادفات إلى الاطلاع عليه، من فم المرأة التي وضعت فيه ثقتها؟

ويرى الرجل خيانته، بينه وبين نفسه، بأن الفتاة هي التي تتأهب لخيانة السلطان، فلا حرج عليه هو، العبد المأمور، في أن يخونها بدوره وحدث ما حدث..

إن كان ما تقوله صحيحا، فسأذبح الخائنة بيدي، وإن كان كاذبا، فسأذبحك أنت! وفي الساعة المحددة للهرب، كان محمد الفاتح وعبده فيروز أغا يرقبان الباب الصغير، من مكان لا يراهما فيه أحد. فتح الباب بحذر، وخرجت الوصيفة وتبعتها إيرينا. لم يكذب فيروز إذن.

ووثب السلطان وخنجره بيده، وجذب الفتاة من شعرها، وبدون أن يتفوه بكلمة، طرحها أرضا، وعقد الخوف لسان المسكينة، وذعرت من هول المفاجأة، فاستسلمت استسلام الشاة للجزار. وذبح السلطان حبيبته بيده، ففصل رأسها عن الجسد!

وسقطت الوصيفة مغشيا عليها، فناول السلطان خنجره إلي العبد الوافي، وأشار إلى المرأة فاقترب فيروز وذبحها على عتبة الباب، ثم

التفت إلى سيده، فإذا بالسلطان قد جمد في مكانه، وشفتاه ترتجفان وعيناه تقدحان شررا.

مد محمد الفاتح يده إلي العبد فأعاد إليه فيروز خنجره المخضب بدم الضحيتين، وانبعثت هذه الكلمات الرهيبة من صدر السلطان:

– كنت صادقا يا فيروز، ولكن يا ليتك كنت كاذبا!

وبجانب الجثتين الغارقتين بالدم، تدحرجت جثة ثالثة، جثة فيروز الوافي الصادق، الذي ذبحه سيده كما ذبح حبيبته. وظل السلطان واقفا لحظة أمام الجثث الثلاث، ولما طفرت من عينيه دمعة حارة، مسحها بطرف الرداء الذي مسح به خنجره، وهرول عائدا إلى داخل قصره! أما تيودوروس أبو الفتاة المذبوحة، فقد هرب من القسطنطينية وبلغ مدينة حلب حيث كانت أمينة ترقب الأخبار. وفى حلب تمكن الزوجان من الهرب أيضا إلى مصر، حيث مارست أمينة السورية الطب، ودخل القائد تيودوروس في خدمة الملك الأشرف إينال، أحد سلاطين المماليك البرجية.

الملكة صفية

"إذا أراد الله خراب مملكة سلط على ملوكها النساء!"

في حي من أحياء القاهرة القديمة، كان يعرف من قبل بالداودية، جامع أثري يدعى جامع "الملكة صفية" يرجع تاريخه إلى القرن السادس عشر للميلاد، ويعد منبره المرمري من أبدع المنابر في مساجد القاهرة، ولهذا الجامع قصة.. وللمرأة التي أطلقت عليه اسمها قصة..

فمن الملكة صفية، أو السلطانة التي عرف الجامع باسمها، وحاولت بذلك أن تخدع الأجيال الآتية بعدها، وتحملها على الاعتقاد بأنها شيدت ذلك المسجد، وهي لم تشيده قط بل ألصقت به اسمها زورا وعدوانا؟.. هي امرأة من نساء البندقية اختلفت فيها آراء المؤرخين؛ فمن قائل إن "مجلس العشرة" في تلك الجمهورية الإيطالية أرسلها هدية إلى السلطان مراد الثالث العثماني فأحبها وتزوجها. ومن قائل أنها من أسرة "بافو" الشريفة، كان أبوها حاكم لجزيرة كورفو، فوقعت ذات يوم في قبضة القراصنة الأتراك وهى ذاهبة في مركب صغير من البندقية إلى

جزيرة أبيها، فباعها أولئك القراصنة في سوق الرقيق، وكانت من نصيب السلطان فأدخلها حرمه وأنزلها فيه منزلة رفيعة. والرأي الأخير هو المرجع لأنه لم يكن من عادة البنادقة أن يهدوا نساءهم إلى الناس!

وسواء أكانت المرأة حرة نبيلة خطفها القراصنة، أم من أصل وضيع أهداها سادتها إلى السلطان، فإن الحقيقة التي لا شك فيها هي أن تلك الغادة الحسناء التي لعبت في تركيا دورا خطيرا، كانت من بنات البندقية ومن أبرع نساء عصرها جمالا وأبعدهن ذكاء وأمهرهن في الدس والمكر والخداع.

كان السلطان سليمان القانوني يردد دائما القول الحكيم: "إذا أراد الله خراب مملكة سلط على ملوكها النساء!" لكنه لم يتعظ بهذه الكلمات البليغة ولم يعمل بها فكان في حياته ألعوبة بيد زوجته "روشان" الإفرنجية، ومعنى اسمها "نور" بالتركية، وهي التي يسميها المؤرخون الغربيون "روكسلانة"، وردد هذه الكلمات من بعده حفيده مراد الثالث بن السلطان سليم الثاني، ثم وقع في الخطأ الذي وقع فيه جده، بل تمادى في ذلك الخطأ أكثر منه فاستسلم للنساء استسلام من ضرب العمى على بصره وبصيرته فكان أيضا في حياته ألعوبة بأيدي زوجاته وحظاياه الكثيرات، وخاصة تلك التي كان يحبها أكثر من غيرها، والتي عرفت في التاريخ باسم الملكة صفية أو السلطانة صفية والتي جاءته من البندقية!

كان للنساء شأن عظيم في قصور السلاطين منذ عهد سليمان القانوني وابنه سليم الثاني. وعندما جلس مراد الثالث على عرش آل عثمان وجد نفسه تحت رحمة أمه اليهودية "نورينو" وأخته الجميلة "اسما سلطان" زوجة أحد قواد المملكة العظام. واشتد نفوذ المرأتين في عهد السلطان سليم الثاني لأن الرجل كان يقضي أيامه بلياليها بعيدا عن إدارة شئون الرعية، تاركا الحبل على الغارب لزوجته نورينو وابنته أسما، وقد عرف ذلك السلطان في التاريخ باسم "سليم السكير".

ولم يستطع ابنه مراد عندما خلفه على العرش في سنة ٩٨٢ هجرية الموافقة سنة ١٥٧٤ للميلاد أن يتخلص سريعا من نفوذ أمه وأخته. ثم قذفت به الأقدار بتلك الفتاة الغربية الحسناء، ابنة البندقية الساحرة، ذات العينين السوداوين والجسم الغض الناصع البياض، فهام بها مراد هياما شديدا يقرب من الجنون، وصارت أعز أمنية لديه أن يجيب لتلك المرأة رغباتها. وعرفت الحسناء كيف تستغل ذلك الحب الذي أضرمت في قلب السلطان، فجعلت تدس الدسائس في الخفاء لخدمة وطنها البندقية، والانتقام من أعدائها ومزاحميها لدى السلطان الخاضع لسلطانها!

لقد دون مراد في سجل التاريخ أعمالا شريفة بجانب أعمال مخزية. وبلغ في حياته ذروة المجد كما انه انحدر إلى أحط دركات النذالة. وإذا كان مدينا بمجده وأعماله الشريفة لنفسه العالية وذكائه

النادر ومداركه الواسعة فإن تلك المرأة الشيطانية التي سلمها نفسه وانقاد لها انقيادا أعمى كانت مبعث نذالته ومصدر وأعماله المخزية!

كان مراد الثالث مزواجا فبلغ عدد زوجاته أربعين، وكان يميل إلى النساء فبلغ عدد السراري والجواري في قصره خمسمائة أو أكثر، وقد رزق مائة وثلاثة من البنين والبنات أثبت أسماء عشرين منهم ـ وكانوا أحبهم إليه ـ في سجل الأمراء أبناء السلاطين.

ذلك هو "الحريم" العرمرم الذي دخلته "صفية" عندما وصلت إلى قصر السلطان قادمة من البندقية، وذلك هو الجيش العظيم الذي لا يحصى له عدد إذا أضيف إليه الخصيان والخدم والعبيد، والذي تمكنت تلك المرأة الجهنمية من التسلط عليه والوصول إلى أرفع المراتب فيه.

لم تنظر أم السلطان "نورينو" وأخته إلى القادمة الجديدة وحظوتها عند مراد بعين الرضا والارتياح والقبول، وخشيت المرأتان مزاحمة تلك الغربية الساحة فجعلتا تكيدان لها في الخفاء لتشويه سمعتها وحمل السلطان على هجرها، ولكنه كان يهمل صفية أياما ثم يعود إليها ونيران المحبة تتأجج في صدره من جديد. دفعت إليه أمه أجمل الغربيات، وقادت إليه أخته أجمل الشرقيات، فكان ينظر إليهن نظرة عطف لا تدوم أكثر من يوم وليلة، ثم يعود إلى تلك التي فتكت به سهام لحاظها، وينسى بقربها ما عداها من النساء. وخرج مرة إلى الحرب ثم عاد إلى عاصمة ملكه، فإذا به يجد في القصر الحسناء "رضية" التي تكهنت له

بالمستقبل الباهر الذي ينتظره، لما كان في العاشرة من العمر فقضى معها أسبوعا تذكر في نهايته حبيبته "صفية" فترك قارئة الغيب وعاد إلى ابنة البندقية.

وفطنت صفية ذات يوم إلى أن إحدى زوجات السلطان اليونانيات قد نالت حظوة في عينيه، قرأت فيها غريمة خطرة، وأعلنت عليها حربا لم تتورع في اختيار أسلحتها وأساليبها. فتمكنت في النهاية من حمل السلطان على قتلها بواسطة خصيانه وإلقاء جثتها في البوسفور طعاما للأسماك. وتحالفت عليها من أجل ذلك نساء القصر اليونانيات، وانضمت إليهن بعض التركيات الناقمات على صفية، لكن السلطان "مراد" الثالث أصغى إلى رغبة زوجته المحبوبة وألحق أولئك النسوة بتلك اليونانية، الواحدة بعد الأخرى، وخلا الميدان من الغريمات المزاحمات لحسناء البندقية!

وذهبت المرأة إلى أبعد من ذلك في انتقامها، فأرادت أن يمتد ذلك الانتقام إلى عالم الأموات ويتناول ما بقي في القسطنطينية من أثار لليونانيين؛ فجعلت السلطان يأمر بنبش القبور التي كانت تضم رفات ملوك الروك في تلك المدينة العظيمة؛ ففتحت القبور وألقيت عظام أولئك الملوك في الطرق والأزقة تنهشها الكلاب ويتقاذفها الأطفال!

وأدركت نورينو أم السلطان أن نفوذ هذه المرأة لا يحارب ولا يقاوم، فأذعنت لحكم الزمن القاسي وتقربت من زوجة ابنها وماتت بين

يدي صفية راضية عنها، معجبة بها، بعد أن أوصتها خيرا بقهرمانة القصر "جانفيدا" ونصحتها بأن تعتمد عليها في إدارة شئون الحريم.

ومنذ ذلك الوقت جعلت صفية تتدخل في الأمور السياسية وتصدر أوامرها إلى الوزراء والقواد والحكام، معتمدة في كل ما يتعلق بالقصر والحرم على صديقتها الجديدة جانفيدا.

أرادت الملكة صفية ذات يوم أن تحصل على مبلغ من المال دون أن يعلم به السلطان زوجها، فطلبته من وزيره الأكبر، فرفض أن يجيبها إلى رغبتها بحجة أن الخزينة خاوية خالية وأنها على أبواب الإفلاس. حنقت عليه المرأة وجعلت تفكر في وسيلة للانتقام منه دون أن يشعر السلطان بذلك أو يدخله ريب من ناحيتها، فوجدت في كنانتها بين السهام الكثيرة سهما صائبا

دخلت على السلطان في حجرته وقد ألبست وجهها قناع الخوف والجزع وقالت بصوت مضطرب:

- علمت من أحد الخصيان الجواسيس أيها الحبيب، أن بعض كبار الرجال في هذا القصر يدبرون مكيدة لإثارة الجيش عليك، لأنك لم تنقد الضباط والجنود ما استحق لهم من رواتبهم منذ شهور!

فقطب السلطان جبينه وقال:

- نعم.. لم أدفع لأن الخزينة لا تحوي المال اللازم، ولا أخفي عنك أنني كثير الخوف من المستقبل.

- لكنني أدلك على وسيلة للخلاص من هذا المأزق، إن النقود المتداولة الآن في أنحاء السلطنة جميعها من الفضة والنحاس، فأضف إليها أيضا ربع قيمتها من النحاس!

- إنها لفكرة حسنة!

- وإذا تذمر الشعب أو تحرك الجيش، فلا تنس أن تلقي التبعة كلها على وزيرك الأكبر اتقاء للخطر!

وهذا ما حدث؛ فقد تذمر الشعب وتحرك الجيش.. وعندما هجم الجنود الإنكشارية على القصر السلطاني طالبين أن تدفع رواتبهم كاملة، وأن تعاد قيمة النقود إلى ما كانت عليه، أوفد السلطان من لدنه رسولا يقول لزعمائهم:

- إن السلطان غاضب جدا على وزيره الأكبر صاحب هذه الفكرة ومنفذ هذا المشروع، ومولانا يعدكم بأنه يعيد إلى النقود قيمتها السابقة ويدفع لكم رواتبكم كاملة غير ناقصة. أما اليوم فإنه يدفع إليكم رأس وزيره المسئول!

وقاد جنود الحرس الوزير المسكين وسلموه للإنكشارية، فذبحوه أمام مدخل القصر مهللين صائحين:

- نصر الله السلطان!

***

في سنة ١٥٨٤ للميلاد الموافقة ٩٩٢ هجرية مات إيفان الرابع قيصر روسيا الملقب بالرهيب، وكانت السلطنة العثمانية مرتبطة في عهده مع روسيا بمعاهدات عدة وقع عليها سليم الثاني السكير، فحملت الملكة صفية زوجها على نقض تلك المعاهدات، لا حبا فيه أو حرصا على مصلحة أمته، بل انتقاما من اثنتين من زوجات السلطان علمت صفية أنهما من بنات الصقالبة، وأنهما تكيدان لها بين النساء، وعندما عادت القبائل الروسية إلى شن الغارة على حدود السلطنة العثمانية، أمر مراد الثالث بذبح الروسيين المقيمين في ولايته، فتناول السيف الزوجتين الروسيتين فيمن تناولهم من الأبرياء! وكانت إحدى نساء القصر _ واسمها وردة _ من اللواتي يبعثن الحسد إلى صدر صفية التي كانت ترمي الاستئثار بعواطف السلطان وشعوره وماله دون سواها من النساء، فسعت إلى التخلص من "وردة" كما تخلصت من غيرها.

وحدث أن هاجم اللبنانيون مدينة طرابلس وضربوها وأحرقوا منازلهم وذبحوا حاميتها، فاغتنمت صفية الفرصة السانحة وقالت للسلطان:

– إن وردة من بنات ذلك الجيل المتمرد وهى تنتمي إلى أولئك العصاة الثائرين، فقد جاء بها إليك النخاسون بعد أن اختطفوها من بلادها، وهى منذ ذلك الوقت لم تغفر لك قبولها في قصرك، فهي خائنة ودساسة جاحدة، اقتلها واسترح وأرح الناس منها!

فقتلها السلطان وقتل معها البنات الثلاث اللواتي رزقهن منها، وسير جيشا لمحاربة اللبنانيين فعاد الجيش على أعقابه خاسرا!

***

وفى سنة ١٥٩٦ مات مراد الثالث في الخمسين من العمر، وتساءل الناس:

– ومن يتبوأ العرش من بعده؟

أما السلطانة صفية الزوجة المحبوبة فإنها لم تتساءل ولم تتردد ولم تفكر طويلا. كانت قد رزقت من السلطان ولدا وعقدت النية على جعله سلطانا بعد أبيه. واسم الولد محمد...

لكن أبناء السلطان كانوا كثيرين، وكان كل منهم يطمع في السلطنة ويتطلع إلى العرش؛ لا بد إذن من القضاء على مطامعهم، ولا سبيل إلى ذلك الا بالقضاء على حياتهم!

وفى ذات يوم، قبل طلوع الشمس انتشر في العاصمة خبر صعق له الناس وترددوا في تصديقه، ما لبثوا أن وثقوا منه وثوقهم من أشعة الشمس الساطعة: "أصبح محمد بن مراد صاحب العرش الوحيد باسم محمد الثالث، أما إخوته فقد ماتوا جميعا مذبوحين ذبح الأنعام!"

ولم يأمر محمد الثالث بقتل إخوته إلا نزولا على إرادة أمه صفية وعملا بنصيحتها!.. وظنت تلك المرأة الداهية المسيطرة على ابنها كما كانت مسيطرة على زوجها، فأصبح محمد الثالث ألعوبة في يدها كما كان أبوه مراد الثالث من قبل..

ومات الابن في سنة ١٦٠٣ للميلاد الموافقة سنة ١٠١٢ هجرية، فأرادت صفية بالرغم من تقدمها في السن أن تصنع بحفيدها أحمد ما صنعته بأبيه وجده من قبل، لكن السلطان الشاب الذي لم يكن قد بلغ الخامسة عشرة من العمر، رفض الانقياد لأهواء جدته، فوضع تحت تصرفها قصرا جميلا على ضفاف البوسفور وأرغمها على الإقامة فيه بقية أيام حياتها، ومن هناك أوفدت السلطانة صفية رسولا إلى مصر فنقش اسمها على لوحة من الرخام، في ذلك المسجد الذي ادعت تلك المرأة أنها شيدته في القاهرة، والذي لا يزال يحمل اسمها إلى الآن! وماتت صفية ابنة البندقية وحبيبة مراد الثالث، منسية مهملة دون أن يدون في السجلات تاريخ موتها!

يتيمة القصر

عاشت واشتهرت بين الناس، وماتت معززة مكرمة، ورعاها إمبراطور بعنايته.. ولكن أحدا غيره لم يعرف حقيقة أمرها!

لم يعرف أحد اسمها الحقيقي ولم يعلم أحد من أين أتت تلك الفتاة فإن حياتها بقيت سرا من الأسرار، والرجل الوحيد الذي كان في استطاعته أن يفضي إلى الناس بحقيقة أمرها، لم يفعل شيئا من ذلك بل ظل صامتا متكتما، وحمل معه سر الفتاة إلى القبر، ذلك الرجل هو نابليون بونابرت. عرفت في مصر باسم "سالمة" وعرفت في فرنسا باسم "ماري" ثم أطلق عليها فيما بعد اسم "جولييت"، عرفها القائد نابليون بونابرت في مصر؛ ففي ٢١ من يوليو سنة ١٧٩٨ انتصر الفرنسيون بقيادة بونابرت على جيش المماليك في معركة "إمبابة" المعروفة بمعركة "الأهرام" والتي قيل – وليس هناك ما يثبت هذا القول على الإطلاق – أن القائد الفرنسي الشاب خاطب جنوده خلالها بهذه العبارات: "إن أربعين قرنا تنظر إليكم من أعلى هذه الأهرام!"

دخل الفرنسيون القاهرة، وفر مراد بك زعيم المماليك على رأس ثلاثة آلاف فارس إلى الوجه القبلي، وتعقبه فريق من الفرنسيين وفي ٢٧ من يولية دخل بونابرت المدينة في موكب حافل، وجئ إليه ذات يوم في

قصره بحي الأزبكية بفتاة بارعة الجمال أمسك بها الجند وهي تحاول الوصول إلي القائد بلا استئذان، فأكرم بونابرت وفادتها، وطلب إليها أن تطلعه على حقيقة أمرها وعلى السبب الذي من أجله طلبت الوصول إليه.

رفضت الفتاة أن تجيبه أمام رجال حاشيته وضباط جيشه، فأدخلها بونابرت إحدى قاعات القصر، واختلى بها ساعة كاملة ثم خرج وأصدر أمره إلى الضابط المشرف على النظام في القصر بأن يعد للفتاة مكانا تقيم فيه، وأوصاه بها خيرا، وطلب إليه أن يحذر الضباط والجنود من التعرض لها. وكانت الفتاة تحسن اللغتين الفرنسية والعربية، وكل ما عرفه عنها الناس أن اسمها "سالمة" وأنها من نساء مراد بك، هربت من قصره بعد انهزامه والتجأت إلى القائد الفرنسي.

أما جنسيتها ودينها وشخصيتها وأسرتها وتاريخ حياتها، فهذا ما لم يعرف الناس عنه شيئا، وما لم يطلع عليه غير بونابرت. وكانت الفتاة تروح وتجئ وتخرج أحيانا إلى الأسواق، وتجالس الضباط الفرنسيين في أماكن اللهو التي أنشأها بونابرت في الأزبكية، وتستقبل بعض المصريين من أعضاء المجلس الكبير، ولكنها كانت دائما تخفي وجهها وراء حجاب كثيف، بحيث لا يرى الناظر إليها من جمالها الفتان غير عينين سوداوين براقتين. ولم ترفع الفتاة الحجاب عن وجهها قط، إلا عندما كان نابليون بونابرت نفسه يطلب منها ذلك في مجلسه وأمام ضباط جيشه، وكثيرا ما

رآها سكان القاهرة في ذلك الوقت بين رجال الحاشية، وراء القائد الفرنسي، في الحفلات والأعياد.

واختفت الفتاة سالمة عن الأنظار لما غادر بونابرت القاهرة على رأس جيشه، وسار به لفتح سورية، حيث ذاق للمرة الأولى مرارة الفشل والانكسار، وعجز عن اقتحام أسوار عكا المنيعة... لم تظهر سالمة أمام الناس طوال ذلك الوقت ولم يرها الضباط والجنود إلا بعد أن عاد بونابرت من سورية.

ثم سافر القائد إلى فرنسا خلسة في ٢٣ من أغسطس سنة ١٧٩٩ ومنذ ذلك اليوم لم يقد نظر أحد على الفتاة، وأدرك الجميع أنها سافرت مع القائد إلى فرنسا، أو أنها لحقت به بعد رحيله بأيام. وانطلقت الألسنة بالشائعات والأقاويل عن علاقة بونابرت بتلك الفتاة المجهولة الغريبة الأطوار، فادعى بعضهم أنها عشيقته وذهب آخرون إلى أنها جاسوسة، وكان الناس كلما ذكروها يسمونها "يتيمة القصر"، وبهذا الاسم عرفها الفرنسيون في باريس، حيث أعد لها بونابرت مكانا لإقامتها، ولكنه طلب إليها أن تغير اسمها العربي، وأطلق عليها اسم "ماري"

وبعد أن رفعت الأقدار القائد بونابرت إلى أوج المجد فجلس على عرش فرنسا، وأصبح صديق سالمة يدعى نابليون الأول، وزحف بجيشه على دول أوربا المتحالفة يجتاح أراضيها ويدك عروشها ويحطم تيجانها ويحتل عواصمها، كانت الفتاة "ماري" تلحق بالجيش أينما حل وحيثما ذهب.

وكان نابليون يدعوها إليه كلما أقام مدة من الزمن في عاصمة من عواصم أوربا، فمكثت ماري في قصور الأباطرة والملوك في برلين وفينا وموسكو وغيرها من سنة ١٨٠٥ إلى سنة ١٨١٣ .

وشهدت حريق "الكرملين" مقام القياصرة في عاصمة روسيا. ونامت في الحجرة التي شاءت الأقدار بعد ذلك الوقت بسنوات أن ينام فيها ابن نابليون الأول "فرخ النسر" في قصر شنبرون في فينا.

وظلت الألسنة تتناقل الشائعات والأقاويل عن الفتاة التابعة للإمبراطور كظله وأطلق عليها بعض الضباط اسم "جولييت" على سبيل المداعبة، وكانوا يتهامسون فيما بينهم بأن "روميو" عشيق الفتاة هو الإمبراطور نفسه!

ولكن الظواهر لم تدل في وقت ما على أن لنابليون علاقة أثيمة بتلك الفتاة الغريبة المجهولة الأصل. وكان كلما حدثه عنها أحد يبدو التأثر على وجهه، ويقول بصوت متهدج: "إن ماري فتاة شجاعة نبيلة، وإنني أحفظ لها ولأهلها في أعماق قلبي أطيب الذكري!"

وفى شهر مارس سنة ١٨١٤ كانت سالمة أو ماري أو جولييت أو يتيمة القصر مقيمة في باريس ، حيث أصيبت بحمى شديدة أودت بحياتها بعد ثلاثة أيام.

وكان الإمبراطور في ذلك الوقت يعاند الزمن ويواجه الصعاب وقد اكتنفته من كل حدب وصوب، فاضطرته الظروف إلى النزول عن عرشه

بعد وفاة "يتيمة القصر" بثلاثة أسابيع، ولكنه علم بموتها قبل رحيله عن فرنسا؛ فأمر وهو في ميدان القتال بأن يوضع على قبرها إكليل من الورد الأبيض، وظلت شخصية الفتاة المعروفة باسم يتيمة القصر سرا من أسرار القصر في عهد نابليون

أفرنسية هي أم مصرية؟

أحبيبة نابليون هي أم جاسوسة كما كانوا يقولون؟

هذا ما لم يعلمه أحد – ولن يعلمه أحد – فقد دفن سر الفتاة معها ومع الإمبراطور!

وقد عثرت على قصتها مدونة في مخطوط على ورق غليظ بلغة فرنسية ركيكة، في "متحف بونابرت" بالقاهرة، وهو الذي أنشأه العالم الفرنسي شارل جليياردو في المنزل المعروف بدار السناري بالسيدة زينب، والذي تشتت محتوياته بعد وفاة مؤسسه.

الجارية زليخة

كان يروي ظمأه من الدماء في الصباح،
فيعاوده التعطش إليها في المساء!

في اليوم الأول من شهر مارس سنة ١٨١١ للميلاد، الموافقة لسنة ١٢٢٥ للهجرة، دعا محمد علي والى مصر بكوات المماليك إلى وليمة في قلعة القاهرة، بمناسبة استعداد ابنه طوسون للرحيل إلى الحجاز على رأس حملة عسكرية لمحاربة الوهابيين هناك، وفى ذلك اليوم وقعت مذبحة المماليك!.. كانوا مطمئنين، واثقين من أنفسهم ومن مناعتهم، فلبوا الدعوة وذهبوا جميعا: أربعمائة وسبعون شيخا وكهلا وشابا، وقتلوا دون أن يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم. ولم ينج منهم غير واحد فقط، قيل أنه قفز بجواده من فوق السور إلى خارج القلعة!

بعد بضعة أيام من ذلك الحادث الرهيب، خرج محمد علي لتفقد المدينة والاطمئنان إلى أن الزمام قد أصبح بيده لا ينازعه فيه منازع. وعاد في المساء إلى قصره بشبرا، حيث كان يختلي إلى نفسه ويرسم خططه للمستقبل. وما كاد يأخذ مجلسه في حجرة تطل على النيل حتى جاءه حاجب يقول: أن الجارية "زليخة" مشرفة على الموت، وأنها تطلب بإلحاح أن تراه!

كان محمد علي يعطف على تلك الجارية ويغدق عليها النعم، لأنه اعتقد أنها جلبت له السعد منذ اليوم الذي استجارت به، وطلبت أن تكون واحدة من جواريه.لم يكن قد اشتراها بمال، ولا تلقاها هدية من أحد، بل هي التي جاءت إليه من تلقاء نفسها، واعترضت طريقه عند باب قصره، فأمر بإدخالها، وسألها عن حقيقة أمرها فتوسلت إليه بألا يلح في السؤال وأجابها إلى طلبها، ومرت أعوام لم يعرف محمد علي عن الجارية الغريبة غير أن أباها من صعيد مصر وأمها من السودان، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي عاد فيه الوالي إلى قصره، وقيل له: أن زليخة مشرفة على الموت، فذهب إليها حيث كانت راقدة، وسمع منها القصة التي كان يجهلها، قصتها قبل أن تلجأ إليه، بل التي جعلتها تلجأ إليه. قالت زليخة:

"كان أبي يدعى "عمار السيوطي"، وهو أحد رجال البرديسي وجندي من جنود المماليك. حارب في صفوفهم وقتل في إحدى المعارك بعد موت أمي بسنتين، فتركني في هذا العالم وحيدة معدمة. ولما علم البرديسي بأمري أحضرني إليه، وبعد أن أقمت عنده بضعة أيام أرسلني إلى "مراد بك" الذي ضمني إلى جواريه في قصره. ولم تطل إقامتي عند مراد بك أكثر مما طالت عند البرديسي، فقد أرسلني ذلك الرجل إلى مدينة عكا هدية منه لي واليها أحمد الجزار مع قافلة حملت إليه كثيرا من النفائس! وكنت في قصر الجزار في عكا عندما غزا الإفرنج هذه البلاد ومشى قائدهم بونابرت على رأس جيش عظيم لفتح ذلك الحصن المنيع وطرد الجزار من ولايته. وقد مرت علينا جميعا في ذلك

الوقت أيام رهيبة ذقنا فيها الأمرين، وقاسينا من ويلات الحرب وأهوالها ما لم يقاسه كثيرون. ثم رحل جيش بونابرت عن المدينة بعد أن فشل في الاستيلاء عليها، وعادت الأمور إلى حالتها السابقة والمياه إلى مجاريها إلى أن حدث ذات يوم في القصر حادث أسفر عن فاجعة دموية مؤلمة، كان عدد السراري في القصر يزيد على ثلاثين وكنت أنا واحدة منهن ولم يحدث مني قط ما يستحق التأنيب ويستوجب غضب سيد القصر أحمد باشا الجزار. لكن واحدة منا واسمها زليخة مثلي، كانت تذنب مع أحد الضباط. وكنا جميعا نعلم بعلاقتها الأثيمة به، لكننا حفظنا السر وتكتمنا خوفا من العقاب الذي قد ينزله الجزار بالجميع على السواء.

لكن ذلك الرجل، الذي كان يحوط نفسه بالجواسيس والزبانية المخلصين، تمكن في النهاية من هتك الحجاب عن السر، وجعل يراقب زليخة بنفسه مراقبة شديدة، حتى فاجأها ذات يوم وهي تأخذ من خادم القصر وردة بعث بها إليها حبيبها! وكانت تلك الوردة آخر ابتسامة من ابتسامات الحياة لتلك المرأة الشقية التعسة؛ فقد نزل الجزار إلى حديقة القصر وأرسل في طلبها فأسرعت إليه، وكان إسراعها إلى الموت، فإن الجزار استل سيفه وقطع رأسها بضربة واحدة، ثم نادى جماعة من "الهوارة" الذين كانوا في خدمته وأمرهم بأن ينزلوا السراري جميعا إلى الحديقة الواحدة بعد الأخرى ويقطعوا رءوسهن أمامه، حتى يأمرهم بالكف عن ذلك!

كان الجزار نمرا في صورة إنسان، دائم التعطش إلى الدماء يروي ظمأه منها في الصباح فيعاوده التعطش إليها في المساء، وقد صدع الهوارة في ذلك اليوم بأمره وأتوا بالسراري إجابة لطلبه، وجعلوا يقطعون رءوسهن على مرأى منه وهو يضحك ويطرب ويغمس يديه في الدماء المتدفقة من النحور. وكان أحد أولئك الجنود يعرفني، وهو مصري من أبناء دمياط، فأبلغني الخبر ومهد لي السبيل للفرار، وأخرجني من القصر خفية بعد أن زودني بالماء والطعام، وطلب إلي أن أهرب من المدينة وأعود إلى مصر إذا استطعت! فعملت بإشارته وغادرت القصر بعد أن علمت منه أن الهوارة قد ذبحوا عشرين امرأة من السراري، وأن الجزار لا يزال يطلب المزيد، وقد قطعت المسافة بين عكا ومصر مشيا على قدمي. وبلغ الجزار خبر فراري فأطلق في أثري جماعة من زبانيته لم يتمكنوا من العثور علي بالرغم من أنني التقيت بهم وعرفتهم! وفي اليوم الذي لجأت فيه إلى هذا القصر، كنت قد قضيت في مصر مدة لا أعرف مداها، تارة أخدم في البيوت، وتارة أستجدي في الطرقات، ولكن ما لقيته من عذاب لا يعد شيئا يذكر إذا قيس بما كان ينتظرني، لو بقيت في كنف الجزار بمدينة عكا!

روت زليخة قصتها، وقضت نحبها، وما أدركت أن دمعة طفرت من عين الرجل القاسي، الذي كان من جهته قد ذبح أربعمائة وسبعين رجلا في يوم واحد، والذي دمعت عينه في تلك اللحظة لأنه اعتقد أن موت الجارية زليخة قد يوقف الحظ عن مجاراته ومرافقته في الحياة!

ومن أغرب ما حدث، بعد وفاة زليخة بنت عمار السيوطي، أن الوالي الذي استتب له الأمر بعد مذبحة المماليك، واطمأن باله، قد ساق إلى حوزته

عشرات من الجواري اللواتي كن في قصور ضحاياه وكانت بينهن واحدة تدعى أيضا "زليخة" عرف عنها أنها تقرأ في الكف وتضرب بالرمل، وتكشف الطوالع، وأن "محمد علي" كان يستشيرها في بعض الشئون الخاصة والعامة، فأصبح لها عليه نفوذ وسلطان!

الضريح الخاوي

لم يعرف أحد من هي؟ ولا من قتلها؟ ولا من سرق جثتها بعد دفنها؟

ضرب الجيش المصري الحصار حول مدينة عكا الحصينة في سورية الجنوبية، بقيادة إبراهيم بن محمد علي، في عام ١٨٣١ للميلاد، الموافق لعام ١٢٤٦ للهجرة؛ فكان ذلك بدء الحرب الطاحنة بين مصر والدولة العثمانية، والتي بلغ فيها المصريون ضفاف البوسفور ومشارف الآستانة قبل ذلك ببضعة أعوام، كان أمير لبنان بشير الشهابي قد زار، ونزل ضيفا على محمد علي في قصره بشبرا، واتفق الرجلان على أن يعملا معا يدا واحدة. ولما وصل الجيش المصري إلى سهل عكا، هبط إليها الأمير اللبناني من مقره بقصر "بيت الدين" لتحية الوافدين، ومعه مائة من فرسانه، وجدد بشير وإبراهيم الاتفاق الذي تم من قبل بين محمد علي وبشير في القاهرة، وفي مضارب الجيش في عكاء وضعت الخطة النهائية لتعاون الفريقين في تلك المغامرة التي أقدما عليها، وقفل بشير راجعا إلى مقره الجبلي، تاركا ابنه الأمير "خليل" في عكاء، حيث وافته قوة أخرى من الفرسان.

وفي بيت الدين فوجئ الأمير اللبناني بخبر غريب دهش له الرجل الذي عركته الأيام والحوادث، والذي كان يعتقد أن لا شيء يدهشه بعد

ما رأى في الدنيا ما رأى!.. قيل له أن خدم القصر كانوا يعملون في الحمامات كعادتهم، بعد رحيله إلى عكاء، فعثروا في الدهاليز على جثة امرأة لم يتبينوا هويتها ولم يعرفوا كيف دخلت إلى ذلك المكان خلسة، دون أن يقع عليها نظر أفرادي؟ وكيف قتلت دون أن يسمع لها أحد صوتا؟

ثار ثائر الأمير لهذا الخبر، وسأل القوم عما فعلوه بالجثة، فأجابوه بأنهم يحتفظون بها في إحدى قاعات القصر، بعد أن صبوا عليها الأدهان والعطر في انتظار عودة الأمير لإطلاعه على ذلك الحادث الغريب!

ذهب بشير إلى تلك القاعة فإذا به أمام جثة فتاة كانت بلا شك جميلة فاتنة، وقد ظهرت في عنقها آثار خنق تدل على أن القاتل استخدم حبلا للقضاء عليها، وفي معصميها أساور ذهبية، وفي قدميها خلخالان من الفضة، وفى شعرها الأسود الطويل المسترسل حليتان ثمينتان. أدرك الأمير أنه أمام فتاة تنتمي إلى إحدى الأسر الغنية الشريفة وعزم على تمزيق الحجاب عن سر تلك الضحية المسكينة، وزاد في عزمه ما كان يعتقده في نفسه من قوة الإرادة وبعد النفوذ.

أما كان الناس في جميع أنحاء لبنان يروحون ويجيئون هادئين مطمئنين، في ضوء النهار أو في دجى الليل، دون أن يعترضهم أحد في الطريق، ودون أن يقع في البلاد حادث اعتداء أو سطو أو سرقة أو قتل؟

أما كان ذلك الجبل المنيع مضرب الأمثال بجماله وأمنه على السواء؟ فكيف إذن تقع تلك الجريمة البشعة في بيت الدين عاصمة الإمارة، وفي داخل القصر مقر الأمير؟، وأي أثر سيحدثه ذلك في طول البلاد وعرضها؟

حاول الشهابي أن يعرف الحقيقة، وعرض جثة الفتاة على الناس، وأرسل المنادين يطوفون في القرى المجاورة، والرسل إلى أطراف إمارته وأذاع الخبر في كل مكان، ولكن ذلك كله لم يجد نفعا، وظل أمر الفتاة الغريبة التي وجدت مخنوقة في دهاليز الحمامات في بيت الدين مجهولا لدى أمير لبنان الذي كان يعتقد أنه لا يجهل شيئا مما حدث، ولن يجهل شيئا مما سوف يحدث! فأمر بشير بأن تدفن الفتاة المجهولة في قبر يحفر لها في حديقة القصر بين الورود والرياحين. وغادر الأمير مقره في بين الدين، على رأس فرسانه وفي صحبة أبنائه إلى ميادين القتال وساحات الوغى!

***

شغلت الحروب والمعارك الأمير اللبناني عن متابعة البحث والسؤال والتحقيق في أمر تلك الفتاة الغريبة، وكان كلما عاد إلى بيت الدين يعير هذا السر الغامض جانبا من وقته واهتمامه، ولكنه لم يتمكن من كشف الستار عنه. وزاره في قصره الطبيب الفرنسي كلوت بك، الذي كان يرافق الجيش المصري في سورية ولبنان، وأقام عنده ضيفا بضعة

أيام؛ فقص عليه بشير قصة الفتاة القتيلة الغريبة، وأفضى إليه بدهشته وغيظه من عجزه عن معرفة القاتل وهوية الفتاة القتيلة.

وخطر للأمير أن يعرض على الطبيب جثة الفتاة أو على الأصح ما تبقى منها! فنادى رئيس الحرس، وأمره بأن يعهد إلى العمال بنبش القبر واستخراج النعش الذي وضعت فيه القتيلة المجهولة! وأسرع رئيس الحرس والعمال إلى تنفيذ الأمر، فرفعوا الأتربة وأزاحوا بلاط الضريح، في حضور الأمير والطبيب كلوت بك. وتراجعوا جميعا مذهولين حائرين، ينظر كل منهم إلى الآخر.. كان القبر خاويا لا شئ فيه!

وثارت ثائرة الأمير الشهابي من جديد، كما ثارت قبل ذلك اليوم بشهور! ونادي حوله الضباط ورجال الحاشية وخدم القصر، وحاول أن يعرف منهم شيئا عن اختفاء الجثة وعن هذا السر الجديد الذي شغل باله كالسر القديم! ولكن الجميع أقسموا أنهم لا يعرفون شيئا، وأنهم لم يروا أحدا يقترب من الضريح أو يعبث به! وقال أحدهم:

- إني أرى في هذا الأمر يا مولاي يد إبليس اللعين! ولا يبعد أن تكون تلك الفتاة من الجان!

فضحك الأمير وهدأت ثورته، وبعد أيام غادره الطبيب كلوت بك فودعه بشير وأغدق عليه العطايا، وقال له:

- يخيل إلي أن أمر هذه الفتاة سيظل سرا دفينا في هذا القصر، وهو على كل حال السر الوحيد الذي عجز بشير الشهابي عن كشف الستار عن حقيقته!

ولم يعلم أحد من كانت تلك الفتاة الغريبة، وكيف دخلت القصر، ومن أدخلها إليه، وأي يد امتدت إليها وخنقتها وتركتها جثة هامدة في دهاليز الحمامات؟ ومن القاتل الذي تبع فريسته إلى القبر، فسرق جثتها وأخفاها في مكان مجهول؟

السلطانة الإفرنجية

عرفت في التاريخ بأنها والدة السلطان، لا لأنها أمه في الواقع، بل لأنه أحبها مثل أمه!

في شهر مارس – آذار – سنة ١٨١٦ للميلاد، الموافقة لسنة ١٢٣١ للهجرة، وصلت إلى الآستانة، عاصمة الإمبراطورية العثمانية، قافلة من التجار الفرنسيين نزلوا في "خان" على مقربة من القرن الذهبي، وأسرع رئيس الجماعة إلى قصر السلطان محمود الثاني، وطلب من رئيس الديوان إذنا بالمثول بين يدي صاحب العرش، قائلا أنه يحمل إليه كتاب توصية من الملك لويس الثامن عشر ملك فرنسا في ذلك الوقت. واستقبل السلطان رئيس التجار الفرنسيين، وشمل الجماعة بعطفه وأمر بأن تمهد لهم سبل الطواف في البلاد، وقضاء الأعمال التي جاءوا من أجلها، وطلب إلى رئيسهم أن يطلعه على أسماء رفاقه؛ فكتب الرجل الأسماء في ورقة، وعندما ألقى السلطان نظرة عليها بدت على وجهه دلائل الاهتمام، وقال لمحدثه:

– إذا كنتم في حاجة إلى شئ أيها الغريب، فأبواب القصر مفتوحة أمامكم في كل ساعة

وفي اليوم التالي، وصل عثمان أغا، رئيس حجاب السلطان، إلى الخان الذي كان التجار نازلين فيه، وطلب مقابلة أحدهم وهو يدعى "جيرار دي بوك"

أسرع صاحب الخان إلى التجار، وأبلغهم رغبة رئيس الحجاب، فتقدم شاب في العقد الثالث من عمره، طويل القامة، بهي الطلعة، وأجاب: أنا جيرار دي بوك! فخاطبه عثمان أغا بلهجة الأمر قائلا:

- اتبعني!

- إلى أين؟

- إلى السراي!

وبعد نصف ساعة، كان الشاب ماثلا في حضرة "السلطانة والدة" وقف الشاب حائرا، يسأل نفسه ما الداعي إلى المجئ به إلى ذلك المكان...؟ لكن السلطانة بددت مخاوفه، وأعادت إلى نفسه الاطمئنان بابتسامة لطيفة هادئة، هي امرأة في مطلع العقد الخامس من عمرها، بارعة الجمال، فاتنة ساحرة، دعت الشاب إلى الجلوس وقالت:

- لا تخف، ما جئت بك إلى هنا لكي ألحق بك أذى

قالت ذلك، ونظرت إليه نظرة ملؤها العطف والحنان، فاقترب الشاب، وتناول يدا مدت إليه، وطبع عليها قبلة احترام وإجلال. ثم أشارت السلطانة إلى عثمان أغا بالانصراف، فخلا لها وللغريب المكان.

– ابن من أنت؟

– أنا يتيم الأبوين يا صاحبة الجلالة. تبناني فرنسوا دي بوك دي ريفري، وسمح لي بأن أحمل اسمه، فعرفت منذ ذلك الوقت باسم "جيرار دي بوك"

– وما جاء بك إلى هنا؟

تردد الشاب لحظة، فقالت له:

– لا يدهشنك سؤالي. قص علي قصتك، وسوف أطلعك بعد ذلك على أمر تجهله، فتعلم أن المرأة التي تخاطبك الآن ليست غريبة عنك بقدر ما تظن!

فقال الشاب:

– ولدت في جزيرة مارتينيك بأمريكا، وهي تابعة للحكم الفرنسي، لأبوين فرنسيين، ولكنني قضيت حياتي في باريس حيث تلقيت العلوم الحربية، فانخرطت في سلك الجيش البحري، ونلت رتبة ملازم، ولكنني تركت الجيش بعد وفاة فرنسوا دي بوك، وانصرفت إلى

التجارة، وأنا قادم الآن إلى هذه البلاد لابتياع كمية من الأسلحة الشرقية، والاتجار بها في فرنسا..

ثم سكت الشاب لحظة وقال:

- ولكن، أية أهمية لهذه التفاصيل في نظرك يا صاحبة الجلالة؟

- أهمية كبيرة

- لا أفهم

- سوف تفهم !

شعر الشاب بأن "السلطانة والدة" سوف تطلعه على أمر رهيب فشخص إليها لاهثا، وتمتم قائلا:

- لقد وعدتني ...

فقاطعته السلطانة، وقالت بصوت عذب:

- إنك تنتظر مني أن أفضي إليك بما وعدتك به، فأصغ إلي إذن.. أن المرأة التي تخاطبك لم تر النور تحت سماء هذه البلاد، ولا يجري في عروقها دم تركي، بل هي فرنسية مثلك، ولدت في جزيرة مارتينيك وطنك، وهي تنتمي إلى الدوحة التي شاء فرنسوا دي بوك أن تصبح غصنا من أغصانها!

- إلى أسرة دي بوك؟

- أنا "إيميه دي بوك"

فانتفض الشاب وقال مدهوشا:

- الرواية إذن صادقة ؟

- أجل الرواية التي تناقلتها الألسنة صادقة فاستمعها من جديد واحملها معك إلى أهلك وذويك وأبناء قومك!

- تكلمي، ومزقي الحجاب عن ذلك السر، الذي طالما أقلقنا وشغل بالنا وأفكارنا...

- عندما هاجم القراصنة السفينة التي كانت تقلني من فرنسا إلى جزيرة مارتينيك، مع خادمي الزنجي، لم يتمكن أحد ممن كانوا في السفينة من النجاة؛ فقد وقعنا جميعا في قبضة القراصنة الذين ساقونا مقيدين بالحديد إلى مدينة الجزائر. وهناك أخذني أحد تجار الرقيق وقدمني هدية إلى حاكم المدينة، بابا محمد، وكان يناهز في ذلك الوقت الثمانين من عمره، وكنت أنا في الرابعة عشرة فقط!

- وبعد؟

- ضمني بابا محمد إلى فريق من النساء كان عازما على إرسالهن إلى

عاصمة السلطنة العثمانية، وفى ذات يوم، أقلعت بنا سفينة كبيرة، وما مضت علي أسابيع حتى وجدت نفسي في هذا القصر، قصر السلاطين، وقيل لي: أن بابا محمد قد أهداني إلى سيده ومولاه السلطان سليم الثالث!

- وبعد؟

- مكثت بضعة أيام في دائرة الحريم، ثم أرسل السلطان في طلبي ولما مثلت بين يديه خاطبني قائلا: "لقد دخلت هذا القصر يا ابنتي، وأود الآن ألا تخرجي منه، ولن أحتفظ بك قوة وقسرا، بل أريد أن تقيمي فيه عن رضا وقبول، وأن تصبحي سيدة النساء والجواري، وزهرة الحريم السلطاني العطرة. أريدك زوجة لا جارية، وحرة لا أمة. فاذهبي الآن وفكري، ونامي حتى تصبحي، وإذا ما راق لك ما أعرضه عليك الآن، فاغتسلي غدا، وتطيبي، والبسي أفخر ما في القصر من ثياب وتعالي!"

- وبعد؟

- فعلت في اليوم التالي ما طلبه مني السلطان، وذهبت إليه!

ثم تنهدت السلطانة، ومسحت دمعة طفرت من عينها، واستطردت قائلة:

- وأصبحت منذ ذلك اليوم زوجة السلطان المحبوبة، وأقرب نسائه إلى قلبه. وقد بقيت في كنفه إلى اليوم الذي سقط فيه قتيلا بدسيسة من السلطان مصطفى الرابع، الذي خلفه على العرش، ولكنه لم يجلس عليه أكثر من سنة واحدة، فحل محله في سنة ١٨٠٩ السلطان محمود الثاني بن السلطان عبد الحميد الأول.

- وهو الجالس على العرش الآن؟

- نعم، ومحمود يحبني ويحترمني، وهو الذي أطلق على اسم "والدة سلطان" أو "السلطانة والدة" لأنني سهرت على طفولته وأخذت بيده وهو صغير يخطو في العالم خطواته الأولى

- إذن ليس السلطان محمود ابنك كما يقولون؟

- كلا؛ فقد ولد السلطان محمود في عام ١٧٨٥، أي قبل وقوعي في أسر القرصان بخمسة أعوام، ولم أكن في يوم من الأيام زوجة لأبيه عبد الحميد الأول الذي مات قبل مجيئي إلى الآستانة بسنة، أي في عام ١٧٨٩ ولكن السلطان "محمود الثاني" يحبني كأمه، ويدعوني أيضا "الوالدة" وهو يأخذ بنصائحي، ولا يقدم على عمل إلا بعد أن أبدى له فيه رأيي، وهو يحب وطنك لأنه وطني، ويجيد لغة قومك لأنها لغة المرأة التي يعدها أمه!

- ألا تحنين إلى أرض ذلك الوطن؟

– أحن إليها! وهل ينسى الإنسان وطنه؟ لكن الأقدار شاءت أن تقصيني عن تلك البلاد المحبوبة. إني أشبه شيء بشجيرة انتزعت من منبتها، ونقلت إلى ديار الغربة، حيث زرعت تحت سماء غير سمائها وفى تربة غير تربتها، فغرست أصولها في بطن الأرض، ونما جذعها فكبرت وأينعت وطرحت ثمارا، وقضي عليها أن تجف وتموت في منبتها الثاني! عد إذن إلى فرنسا، وأعد على مسامع من بقي من أسرتنا ما سمعته مني الآن. قل لهم: أن إيميه دي بوك سعيدة في مهجرها حتى يوافيها أجلها. والآن اذهب، أسرع، فهذا كل ما كنت أرغب في الإفضاء به إليك. لقد هاجت في الشجون، ولا أريد أن أدع للضعف سبيلا إلي!

– دعيني إذن أقبل هذه اليد مرة أخرى، كما لو كنت أقبل يد أمي! وسوف أوافيك من هناك بأخبار الأسرة...

– لا.. إياك أن تفعل هذا! لقد دفنت نفسي في هذا القبر المذهب، وقطعت مع الخارج كل علاقة. إنني سعيدة هنا، سعيدة إلى حد لا أتطلع معه إلى ما هو فوق سعادتي. ولربما حملت إلي رسائلك ورسائل ذويك ما يحيي في ذكريات الماضي، وينغص علي عيشي، ويحملني على ندامة لا أريدها. اذهب يا بني. أرجو لك ولمن بقي من أهلي في فرنسا، هناءً كالذي أتمتع به الآن هنا!

فأكب الشاب على يدي قريبته يقبلهما، مدفوعا بعامل النسب نحو امرأة يجري في عروقها وعروقه دم واحد!

***

تلك هي قصة إيميه دي بوك "السلطانة والدة" كما كانوا يسمونها، والتي تكهنت لها عرافة في صباها بأنها ستضع على جبينها تاج الملك فتحقق التكهن..

عاد جيرار دي بوك إلى وطنه، وأطلع أسرته على السر العظيم، فهاج القوم وماجوا، وحاولوا أن يعيدوا بينهم وبين السلطانة "التركية" علاقات أبت هي إلا قطعها، فذهبت جهودهم أدراج الرياح، ولما أعيتهم الحيل، ركب البعض منهم متن البحار، وسافروا إلى الآستانة العليا، وطلبوا المثول بين يدي تلك التي تحمل اسمهم، والتي دفعتها الأقدار إلى أرفع المراتب، لكنهم فشلوا على ضفاف البوسفور، كما فشلوا على ضفاف السين، ولم تفتح أمامهم أبواب أرادت السلطانة أن تظل موصدة! فعادوا إلى وطنهم خائبين، ولم يعيدوا الكرة من جديد، وأسدل الستار دون أن يعلم أحد ماذا حدث وراءه!

أرادت السلطانة التي كان السلطان محمود يدعوها "يا أمي" أن يخيم النسيان على بقية أيامها، فكان لها ما أرادت، وماتت إيميه دي بوك ريفري "السلطانة والدة" زوجة السلطان سليم الثالث، في سنة ١٨١٧ في الحادية والأربعين من العمر!

أما جيرار دي بوك، فقد دفعه ذلك السر الذي مزق عنه الحجاب، إلى العودة إلى الآستانة، حيث دخل في خدمة السلطان، متطوعا في جيشه، محاربا في صفوف الأتراك؛ فشاءت الظروف أن يشترك في المعارك التي دارت رحاها في سورية والأناضول، بين الجيوش التركية والجيوش المصرية في سنة ١٨٣٢ فوقع أسيرا، وعرض عليه المصريون أن يحارب في صفوفهم، فرفض بلباقة قائلا: أنه لا يسعه أن يحمل السلاح ضد قوم يعرف أن دم أسرته يسري في عروق سلاطينهم!

فأطلق المصريون سراحه، وعاد إلى وطنه على ظهر سفينة أقلعت من ميناء صيدا بلبنان، في سنة ١٨٣٣ ومات في فرنسا بعد عودته ببضعة أعوام.

السلطانة صافناز

أحبها ورعاها بعنايته وهو "أمير" وأهملها وهو "سلطان" فآثرت العزلة بعيدا عن الناس !

دخلت والدة السلطان، أو "والدة سلطان" على حسب لقبها بالتركية، على ابنها عبد العزيز، الجالس على عرش آل عثمان منذ عام ١٨١١خلفا لأخيه عبد المجيد، فأسرع إليها، وتناول يدها باحترام وإجلال وقادها إلى مقعد وثير، فأجلسها عليه وقال:

– رجوتك بالمجئ إلى يا والدتي العزيزة، لكي أفضي إليك برغبة أريد تحقيقها بك.

فوضعت الأم قبلة على جبين ولدها وقالت:

– إنك سلطان البرين، والسيد المطلق التصرف يا بني؛ فأي أمنية تلك التي تحتاج إلى مساعدة أمك لتحقيقها؟

– نعم.. أعلم أن في استطاعتي الحصول على ما أريد دون أن يعارضني أحد، لكنني أخضع للتقاليد، وإليك الآن ما أرغب

– تكلم يا بني.

– في العام الماضي أهدى إلينا محمود بن عياد باشا التونسي ثلاث صبايا فاتنات من نساء قصره، نلن حظوة في عيني، وأردت أن يعاملن في القصر معاملة خاصة، فأمرت بوضعهن في حمايتك، وطلبت إليك إحداهن تحت رعايتك.

– نعم والصبايا الثلاث: يلدز، وناجية، وصافناز يقمن منذ ذلك الوقت معي، ويتناولن طعامهن على مائدتي!

– أماه أرغب في اتخاذ إحداهن زوجة لي. فهي في نظري جديرة بأن تحمل لقب "سلطانة" إذا ما رزقت منها ولدا، وهذا ما أرجوه ...

– ومن السعيدة الحظ التي وقع عليها اختيارك؟

– صافناز، إنها أبرع الثلاث جمالا وأفتكهن لحظا. خاطبيها وأطلعيها على رغبتي هذه.

– سيكون لك ما تريد يا بني!

***

أسرعت الأم إلى الصبية الحسناء وقصت عليها ما حدث بينها وبين السلطان عبد العزيز، وهنأتها على تلك الحظوة الخاصة، وذلك العطف السامي، ظنا منها أن الفتاة سترقص طربا، وتقابل الخبر بفرح

وحبور، لكن "صافناز" ألقت بنفسها على قدمي والده السلطان، وأجهشت بالبكاء، وجعلت تندب سوء طالعها!

– لم أعرف والدي يا مولاتي، لأن النخاسين اختطفوني طفلة من البلدة التي ولدت فيها، بل أنني لا أعلم هل أنا تركية، أو شركسية، أو رومية، أو عربية؟ وفى هذه السنة التي قضيتها في كنفك، في هذا القصر، ألفيت فيك حنانا أنساني ما عانيته في حياتي من مذلة وبؤس وشقاء. نعم إن عطف مولاي السلطان، ووقوع نظره علي واختياري دون نساء الحرم زوجة له، كل ذلك يقع في نفسي وقعا شديدا، ويؤثر في تأثيرا عميقا، لكنني لا أريد يا مولاتي، كلا، لا أريد أن أصير سلطانة بل أوثر البقاء وضيعة خاملة!

عبثا حاولت والدة السلطان أن تقنع الفتاة بالعدول عن عزمها، فاضطرت في النهاية إلى مجارتها في رغبتها، وإنقاذها مما كانت تعتقده مصيبة كبيرة وبلاءً عظيما! فقالت للفتاة:

– لابد أن يكون في صدرك سر دفين تضمينه بين الضلوع يا ابنتي.. فهل لك أن تطلعيني عليه، وأن تكاشفيني بحقيقة أمرك؟.. إنني امرأة مثلك. امرأة ذاقت في صباها ما تذوقينه الآن من مرارة وحسرة، فقد جئ بي إلى هذا القصر بالرغم مني، لكنني خضعت لأحكام القدر، وأذعنت لما كتب لي في صفحات الغيب؛ فنسيت الماضي، ورضيت

بالحاضر وانتظرت صابرة ما يجيئني به المستقبل. تكلمي يا ابنتي وقولي لي أي سر ذلك الذي يحملك على الرفض؟

فتنهدت صافناز، وأجابت:

– لا تسأليني.. بل سلي الأمير عبد الحميد

فانتفضت والدة السلطان وتمتمت:

– آه! فهمت الآن!

***

كان الأمير عبد الحميد شابا جميلا يطوف بأرجاء القصر، ويقضي لياليه في الحدائق الغناء، لا تقلق باله شئون السلطنة، ولا تعكر صفو راحته متاعب العرش. كان في الثلاثين من عمره، عندما وقع نظره للمرة الأولى على الفتاة صافناز، فعلق بها قلبه، وعلق به قلبها، وتوثقت بين الاثنين عرى حب شديد خالص، وجعل كل منهما يمني النفس بزواج قريب يحمل معه السعادة والهناء. لكن صافناز كانت من نساء السلطان وجواريه، وليس لعبد الحميد أن يتطلع إلى حرم عمه، ويتخطى حدودا لا تسمح له التقاليد بتخطيها، وعندما جاءته والدة السلطان سائلة مستفهمة، أفضى إليها، وأطلعها على ما يكنه قلبه من حب وهيام لتلك الصبية الحسناء وبما يعلقه من أمل على تحقيق أمنيته باتخاذ صافناز زوجة له.

أدركت أم السلطان أنها أمام عاطفة قوية متبادلة بين الاثنين، وحملها حدوها على الميل إلى مساعدة عبد الحميد دون ابنها، فقالت له:

– إن عمك يا بني جالس على العرش، وهو صاحب سلطة واقتدار، له ما يريد ويملك ما يشاء. فأنعم بالا، سأسعى إلى التأثير عليه، فأجعله يعدل عن رغبته، وتبقى صافناز حرة طليقة، فتتخذها أنت زوجة لك!

– سأحفظ لك ما حييت هذا الجميل، لقد أحببت صافناز حبا عظيما، تضمحل أمامه كل عاطفة، ولو قدر علي أن أفقد أمل الزواج منها وأصدم في هذا الحب العميق، لقضيت حياتي شقيا تعسا حزينا

فوعدته خيرا، وقطعت على نفسها عهدا بأن تحقق ذلك الحلم وتعقد ذلك الزواج.

***

صدق السلطان عبد العزيز ما قصته عليه أمه من أمر صافناز واعتقد أن الفتاة مريضة، وأن الأطباء أشاروا عليها بالراحة التامة والابتعاد عن الآستانة، والالتجاء إلى المناطق الجبلية طلبا للسكون والشفاء. وذهبت الأم إلى أبعد من ذلك، وجعلت ابنها السلطان يعتقد أيضا أن الزواج يقضي على حياة صافناز، وأن دخول رجل عليها سوف يكون بمثابة دخولها القبر!

لم يخطر ببال عبد العزيز أن "والدة السلطان" تخدعه، فعدل عن عزمه، ورضي باتخاذ يلدز زوجة له، بدلا من أختها صافناز، وهكذا كان....

وبعد أيام، جاءت والدة السلطان إلى عبد العزيز، وهي مكفهرة الوجه مقطبة الجبين، وقالت: "إنني أحمل إليك اليوم يا بني خبرا ليس فيه ما يسر ويفرح. لقد ماتت صافناز، ودفنت في حديقة المنزل الذي كانت تسكنه في جبال الأناضول!" أما الحقيقة فكانت غير ما ذكرت والدة السلطان. وفى الوقت الذي كان عبد العزيز يعتقد فيه أن الصبية أصبحت في عداد الأموات، كانت صافناز حية خالصة لحبيبها الأول، مهدت المرأة للاثنين سبيل الزواج، وصارت تنظر بعين العطف والرعاية إلى ذلك الحب المترعرع، فأحاطته بسياج من الكتمان، وظل أمر الحبيبين يجهله الجميع، دون أن يعلم أحد في الآستانة كلها أن الفتاة "الميتة" لا تزال على قيد الحياة، وأنها أصبحت زوجة للأمير عبد الحميد! أربع سنوات قضاها الزوجان في السعادة والهناء، فرزقا ثلاثة أبناء هم ثمرة الحب الأول، وظل عبد الحميد إلى آخر أيامه يذكر بالحسرة والحنان تلك الساعات الحلوة اللذيذة التي مرت على شبابه مرور الطيف!

في سنة ١٨٧٦، مات السلطان عبد العزيز مقتولا، وجلس على العرش بعده ابن أخيه مراد، باسم مراد الخامس، وهو أخو عبد الحميد الأكبر وابن السلطان عبد الحميد. ومنذ ذلك الوقت، جعل الأمير يتطلع

إلى أريكة الملك، ويوجه كل عنايته إلى تسنم ذلك العرش، الذي لا يليق له رجل ضعيف الإرادة خائر النفس كالسلطان مراد.

وفى ثلاثة شهور، أثبت عبد الحميد أنه جدير بالملك، وأن إنقاذ السلطنة من الخطر الداهم الذي يكتنفها لن يتم إلا على يده، فاكتسب محبة رجال البلاط وأقطاب البلاد، وفى شهر أغسطس ١٨٧٦ كان الأمير عبد الحميد جالسا على العرش، ونودي به سلطانا باسم عبد الحميد الثاني. وبدلت الأقدار أحوالا بأحوال وأشخاصا بأشخاص!

تقلد عبد الحميد "سيف عثمان" في حفلة رائعة أقيمت في جامع أيوب بالآستانة، في السابع من شهر سبتمبر سنة ١٨٧٦. ومنذ ذلك اليوم، عادت صافناز الميتة إلى الحياة جهارا، وحملت لقب "سلطانة" عملا بالقوانين واتباعا للتقاليد. وبدلت الأقدار أيضا قلوبا بقلوب وشعورا بشعور!.. كان عبد الحميد "الأمير" يحب زوجته ويخلص لها في حبه، لكن عبد الحميد "السلطان" لم يكن ليجد من وقته متسعا، بين المكايد والدسائس ومتاعب الملك، للالتفات إلى تلك المرأة التي أحبها الحب العظيم ثم أن نيران الحروب والثورات، وقد اندلعت ألسنتها في أطراف السلطنة، كانت تسترعي أنظار الرجل وتتطلب اهتمامه، فأخمدت في صدره من جراء ذلك نيران الحب القديم. وظل عبد الحميد الثاني يحوط حبيبته الأولى – السلطانة صافناز – بالعطف والعناية، ولكنه كان يفعل ذلك مدفوعا بعاطفة الاحترام لزوجته، لا بعامل الحب والهيام..

كان في الرابعة والثلاثين من عمره عندما قبض بيده على صولجان الملك، ومنذ ذلك الوقت، عزم عبد الحميد على خنق ما يتلاطم في صدره من شعور، ويهيج فيه من عواطف، أراد أن يكون سلطانا قبل كل شيء والاحتفاظ بالسلطنة يقضي عليه بأن يطرح جانبا كل عاطفة من شأنها أن تنسيه واجبه نحو العرش! والحب عاطفة من هذا النوع! لقد بلغ غرامة بصافناز مبلغا عظيما، وهام بها هياما وظل لها مخلصا وفيا في السنوات الأربع التي قضاها معها، بعيدا عن أعين الناس ونواظر الرقباء. لكن غرامه بالعرش، وهيامه بالسلطنة، قضيا على تلك الحياة الهنية، وبددا ذلك الحلم الجميل، وصار الواجب يحتم على عبد الحميد أن يكون سلطانا قبل أن يكون رجلا. دخلت عليه صافناز ذاته يوم في خلوته، وانطرحت على قدميه وجعلت تذكره بذلك الحب الذي كان الشابان يستمدان منه الحياة. قالت له:

– أنسيت يا عبد الحميد أنني رفضت طلب عمك، وآثرت الزواج بك على الزواج به؟ لقد فعلت ذلك لأنني كنت أحبك.

فأخذ السلطان رأس زوجته بين يديه، وضمه إلى صدره، وقال بصوت متهدج:

– أعلم ذلك يا حبيبتي، وكنت أنظر إلى الحب نظرك إليه، لكن الأقدار شاءت أن أنهج في حياتي منهجا آخر. لقد أحببتك، ولا أزال أحبك، وسوف تظلين في هذا القصر وبين نسائه المختارة المدللة، ولكن

واجبا أسمى من واجب الحب يدعوني إليه. بالأمس كنت لك وحدك أما اليوم فإنني للعرش أولا ولك (ثانيا) لو استسلمت بعد الآن للحب استسلامي له من قبل، لفقدت العرش وأضعت السلطنة، ولن يقال أن عبد الحميد فقد عرشه وأضاع سلطنته من أجل النساء! سأعطيك من وقتي ما يتيسر، أما المال فلك منه ما تريدين وقصور الآستانة أمامك، أنت فيها جميعها الآمرة الناهية!

فرفعت السلطانة صافناز رأسها، ونظرت إلى الحبيب بعينين ترقرقت فيهما الدموع:

– إن قصور الآستانة جميعها، وخزائن أموال السلطنة كلها، لا تساوي في نظري بالنسبة إليك شيئا.

طلبت السلطانة من زوجها أن يمن عليها بالطلاق كما من عليها من قبل بالزواج؛ فأجابها إلى طلبها، وأهدى إليها قصرا على شاطئ البحر الأسود، حيث أقامت مدة من الزمن مع رجل آخر اتخذته زوجا لها بموافقة السلطان، اعتقادا منها أن هذا الزواج الثاني سينسيها الزواج الأول، لكن الزمن ظل عابسا في وجهها، فأدركت أن السعادة قد ولت ولن تعود إليها.. وأمعن ذلك الحظ السيئ في تعذيبها، فمات زوجها الثاني والتهمت النيران قصرها!.. بلغ عبد الحميد الخبر، وكان في ذلك الوقت في أوج مجده، فأرسل يعرض على المرأة التي أحبها أن ترجع إلى القصر، وتقيم بين نساء الحرم معززة مكرمة، لكنها رفضت؛ فأنعم عليها

بقصر آخر في "جامليجة" وأمر لها بخمسين (ذهبا) مرتبا شهريا، وهناك في عزلة ووحدة، قضت السلطانة صافناز بقية حياتها تستمد القوة من ذكريات الماضي، وتنظر تارة قلقة، وتارة مذعورة، إلى الغيوم الملبدة في فضاء السياسة، والأمواج المتلاطمة حول العرش وتسمع من بعيد هزيم الرياح الهوجاء المنذرة بعظائم الأمور!.. لكن الموت وافاها في ذلك القصر الذي استحال لها قبرا، قبل أن تشاهد هبوب العاصفة، وزعزعة العرش، وسقوط الرجل الذي أحبته وموته في قصر منعزل، سجينا مثلها!

الجارية الأرمنية

كان السلطان عبد الحميد الثاني يكتب اسمه على لوحة من الخشب برصاص المسدس!

نزحت الأسرة الأرمنية من جبال القوقاز واستوطنت مدينة أرضروم حيث نشأ أجدادها، وكان كبيرها "شاهن أفديكيان" يتعاطى بيع الصوف وتجارة الأغنام، وماتت زوجته وهي دون الثلاثين من العمر؛ فظل يسهر وحده على ابنتيه ويعنى بتربيتهما. كان يضطر إلى التنقل في المزارع والجبال، بحكم عمله، فتبقى الطفلتان في البيت المتواضع في حراسة خادمة عجوز أمينة.

كان الأرمن في ذلك العهد تحت رحمة الأتراك، لا تمر سنة دون أن تنزل بهم أنواع الاضطهاد والإرهاق. حدث مرة أن وقع خلاف بين تاجر الأغنام وبعض الموظفين، فاضطر المسكين إلى الرحيل عن بلدته مع عائلته، خوفا من حدوث ما لا تحمد عقباه وهربا من انتقام خصومه وبطشهم به وبعائلته، لكنه فر من شر للوقوع في أسوأ منه؛ فقد هاجمه في الطريق لصوص قطاع الطرق وذبحوه مع الخادمة وحملوا الطفلتين إلى مغاورهم ثم ألقوهما بين يدي "أفرام باشا" تاجر الرقيق مقابل مبلغ من المال، وباعهما أفرام باشا في الآستانة، فاشتراهما القائد العسكري "شاكر أحمد باشا"، وقدمهما هدية لمولاه السلطان عبد الحميد الثاني

في عيد ذكري جلوسه، سنة ١٨٨٥، وكانتا قد أصبحتا صبيتين على جانب كبير من الجمال..

***

كان عبد الحميد سريع الانفعال كثير الشكوك، يرتاب في كل حركة تبدو من حاشيته، نزاعا إلى سفك الدماء مخافة أن يهدر دمه، متفننا في إزهاق الأرواح محافظة على حياته، لكنه كان كبقية الرجال ذا قلب حساس يخفق للجمال، وصدر تخلج فيه لواعج الغرام.

ولم ينج ذلك السلطان القابض على زمام مملكته المترامية الأطراف من الوقوع تحت سلطان الحب الذي لا مرد لإرادته، فانقاد لنداء القلب صاغرا ذليلا، ومال تحت ذلك النير القاهر، كما انقادت الأقوام ومالت أعناقها تحت نير عبد الحميد صاغرة ذليلة.

أحب سجين يلدز صغري الفتاتين. وعلق بها فؤاده وتضاعف بسببها أرقه، وأحس بأن هذه الأرمنية الحسناء سوف تلعب في حياته دورا غير الذي تلعبه المئات من السراري والجواري، اللواتي كانت تعج بهن قصوره. أرسل في طلبها ذات يوم، فدخلت عليه في مخدعه مع "جعفر أغا" رئيس الخصيان، وكان عند السلطان أحد كتبة أسراره الضابط "علي فؤاد بك".

نظر إليها مقبلة فالتفت إلى الضابط وقال:

– دعني وانصرف يا علي بك، لكنني أسمح لك بأن تمتع عينيك بالنظر إلى هذا الوجه المنير؛ فتذكر في المستقبل أنك رأيت أجمل سرية في قصر عبد الحميد!

نهض الضابط وحدق ببصره وهو خارج إلى تلك الفاتنة التي فاق جمالها كل جمال وسما بهاؤها على كل بهاء، ويا ليته لم يرفع الطرف ولم ينظر! فقد أخذ لساعته بذلك الحسن المفرط. وشعر بأن سهما حادا قد انطلق من مقلة الفتاة وأصاب فؤاده في الصميم.

كان قلب الضابط خليا فخرج من لدن السلطان عاشقا! وجلست الحسناء أمام عبد الحميد وعلى موطئ قدميه، فجعل يداعب بشرتها الناصعة البياض، ويعبث بجدائل شعرها، ويبثها مكنونات صدره ويكشف لها عن أعماقه:

– إنك تشبهين "نعمت" الفتاة التركية التي كنت أحبها وأغدق عليها النعم، والتي فصفت يد المنون غصن شبابها رطبا، فدعيني أطلق عليك هذا الاسم إحياء لذكرى الماضي.

– افعل ما يحلو لك يا مولاي، فأنت السيد المطاع!

– إذن يا نعمت، أريد أن تأتيني كل ليلة في مثل هذه الساعة، فترسلي شعاع الفرح في ظلام حياتي، وتغريد البلابل في السكون الذي يكتنفني!

- سأجيء يا مولاي!

- أليس لك رجاء تفضين به إلي؟

- لدي رجاء لو استجاب له مولاي لجعلني سعيدة شاكرة، ولحفظت له من أجله أحسن جميل!

- أي رجاء هذا؟

- تقيم في هذا القصر أخت ليس لي سواها وليس لها سواي فهل يأمر مولاي بأن تعامل بين النساء كما أعامل أنا بينهن؟

- أجل

وتناولت الفتاة طرف الرداء السلطاني وقبلته

***

ظلت "نعمت" مدة من الزمن تنعم بحب السلطان، وقد جمعت هي وأختها من الجواهر والحلي أكداسا لا تقدر بثمن، لكنهما كانتا تحنان إلى وطنهما، إلى الربوع التي لعبتا فيها صغيرتين، إلى الجبال التي طالما طافتا في وعرها وهضابها، إلى أبناء قومهما الذين لا يعرفون من أمرهما شيئا والذين كانوا يعتقدون أنهما قد أصبحتا في عداد الأموات.

كاشفت محظية السلطان سيدها ذات ليلة برغبتها في السفر إلى

ذلك الوطن، وأقسمت له أنها ستعود دون أن تفكر في الهرب، لكنه رفض السماح لها بقضاء رغبتها، وداخلته الريبة في سلوكها، وجعل منذ ذلك الوقت يضيق عليها الخناق ويضاعف المراقبة ويبث الأعين في أثرها.

وكانت الفتاة قد زجرت الضابط "علي فؤاد بك" الذي راودها مرارا عن نفسها، وأعرضت عنه وأنبته على جرأته وهددته برفع شكواها إلى السلطان إن لم يرجع عن غيه ويكف عن ملاحقتها؛ فحمل الضابط موجدة على المسكينة، وأضمر لها الشر والأذى وبات يرقب الفرصة للإيقاع بها والانتقام منها. وهل من عدو أشد خطرا من العاشق إذا ما رام انتقاما بعد الصد والهجران؟

علم الضابط "علي فؤاد" بأن "نعمت" تقدمت إلى عبد الحميد برجاء وأنه لم يجبها إليه، فعول على اقتناص هذا الظرف الملائم وضرب الحسناء المعتصمة ضربة تصيبها في صميم حياتها، واغتنم فرصة وجوده في اليوم التالي في حضرة مولاه، فاستأذن في الكلام مدعيا أن لديه أمرا يرغب في اطلاع السلطان عليه، وأن ذلك الأمر يتعلق بسلامة الدولة والجالس على العرش..

أذن له عبد الحميد بالكلام فطفق الضابط المفتري يقص على مولاه خبر مؤامرة وهمية يدبرها قوم من الأرمن لاغتياله، ثم ختم حديثه قائلا:

– لقد وقع اختيار أعداء جلالتكم على امرأة من نساء القصر لتنفيذ خطتهم الجهنمية والإقدام على فعلتهم الشنعاء!

فارتعد عبد الحميد وقال:

– أي امرأة هذه؟

ونظر إلى كاتب أسراره لاهثا مستفهما، فسكت الرجل كأنه يتردد في إماطة اللثام عن سر هائل، لكن السلطان انتهره صائحا:

– آمرك أن تتكلم يا علي وأن تفضي إلي بكل ما تعلمه!

فقال الواشي:

– إن المرأة التي أقصدها هي اليوم أحب السراري إلى جلالتكم!

– أفصح!

– هي نعمت الأرمنية!

فدوى صوت عبد الحميد في أرجاء القاعة مناديا:

– جعفر أغا.. جعفر أغا...

***

ودخلت الأرمنيتان على السلطان في تلك الليلة، إجابة لطلبه، وكان جالسا على مقعد من المخمل الأسود أمام نافذة تطل على حديقة

القصر، مسندا ذراعه اليمنى على وسادة خضراء، باسطا ذراعه اليسرى على حافة النافذة.. نظر إلى المرأتين نظرة طويلة كثيرة المعاني، ثم أشار إلى رئيس الخصيان بأن يبتعد ويقف بالباب حارسا، والتفت إلى نعمت وأختها وقال:

- نعمت، لدي رجاء خاص أرجو أن تجيبيني إليه في الحال، وبعد ذلك أعدك بأن أطلق سراحك من هذا القصر، وأبعث بك إلى حيث تشائين!

- مرني يا مولاي فأنا رهن إشارتك!

- ارقصي!

فنظرت إليه نعمت حيرى مندهشة

- قلت لك ارقصي، لقد قيل لي إنكما - أنت وأختك - تحسنان الرقص، وبي رغبة شديدة إلى رؤيتكما ترقصان!

تبادلت الأختان النظرات، وما كانتا يوما من الأيام تحسنان الرقص كما ادعى السلطان، ولكن لا بد لهما من إجابته إلى طلبه فرقصت نعمت، وفعلت أختها مثلها فرقصت، وجعل عبد الحميد ينظر إليهما هادئا صامتا، ثم قال لنعمت:

- أما قيل لك يا نعمت أنني أحسن إطلاق النار أيما إحسان، وأنني لا أخطئ المرمى برصاص المسدس؟

فزادت دهشة نعمت لهذا السؤال وأجابت:

- قيل لي ذلك يا مولاي، وقيل لي أيضا: أنك تكتب اسمك الكريم على لوحة خشبية برصاص المسدس..

- لقد صدقوا.. ضعي إذن إصبعك على ثديك الأيسر، ولا تتوقفي عن الرقص.. أجل.. هكذا.. ألا تشعرين الآن بخفقان قلبك وراء هذا الثدي؟.. ما قولك إذا أوقفت هذا الخفقان برصاصة مسدس؟..

فارتعدت المسكينة خوفا وضغطت بيدها على ثديها، ودوى في القاعة صوت طلق ناري، وسقطت نعمت على الأرض جثة هامدة، وقد اخترقت الرصاصة قلبها ووضعت حدا لخفقانه، ونفذ عبد الحميد وعيده! وألقيت الجثة في البوسفور بعد أن أثقل عنقها بحجر، ونسي السلطان أو تناسى تلك الساعات الحلوة التي قضاها مع نعمت الارمنية الحسناء التي أحبها، والتي أرداها لمجرد وشاية كاذبة، مضحيا بغرامه في سبيل حياته، وما كانت المسكينة تفكر يوما في الاعتداء على تلك الحياة!

وظلت أختها الكبيرة في القصر منبوذة مهملة، وظل الضابط "علي فؤاد" في القصر أيضا، وقد نال حظوة في عيني مولاه الذي اعتقد فيه الأمانة والإخلاص، لكن الضمير المؤنب لم يرحم ذلك الواشي الذي بات يتألم ندما على ما بدر منه، ولم يطق صبرا على كتمان السر دفينا

في صدره، فباح لأخت ضحيته بكل شيء، وطلب إليها أن تأمره بعمل يقدم عليه تكفيرا عن ذنبه وإساءته؛ فقالت له الأخت الحزينة:

– أنقذني من الجحيم الذي أعيش فيه هنا. وليسامحك الله ويغفر لك ما فات!

وبواسطة ذلك العاشق الذي دفعه حبه إلى الإجرام، تمكنت الأسيرة من الفرار من يلدز، والعودة إلى بلادها حاملة معها ما استطاعت حمله من حلي ونقود. وكتمت أمرها عن الناس إلى أن حدث الانقلاب الذي أطاح بعبد الحميد سنة ١٩٠٨ فأطلعت المرأة قومها على قصتها وقصة أختها..

ومرت أعوام، ونكبت المرأة من جديد في سن الكهولة، خلال الحرب العالمية التي نشبت في عام ١٩١٤ كما نكبت من قبل في صباها على أيدي اللصوص والنخاسين، فهامت على وجهها في البراري والقفار.. وصلت إلى بادية الشام فالتقطها العربان والتحقت بقافلة من اللاجئين الهاربين، الذين شاء حسن حظهم أن يلاقوا الأمان في بلدة العقبة، خلال الثورة العربية. فقد انتقلوا من العقبة إلى السويس، وكانت الجارية الأرمنية أخت نعمت معهم، فقضت البقية الباقية من حياتها بالقاهرة.

نديم أغا العاشق

مكايد، ودسائس، ووشايات، ورصاص يلعلع، وجثث تتساقط!

تلك كانت ناحية من نواحي الحياة في قصور السلاطين!

كان نديم أغا عاشقا، بالرغم من أنه لم يكن غير نصف رجل!.. شاءت الأقدار أن يولد المسكين مطبوعا بطابع النحس، وأن تعبس السعادة في وجهه وتوليه ظهرها، وشاءت إرادة أسياد غلاظ قساة أن يكون نديم أغا واحدا من خصيان القصور السلطانية، ولكن لأولئك الخصيان المساكين – خلافا لما يعتقد الناس – عروقا تنبض، وقلوبا تخفق، وصدورا قد تختلج فيها عاطفة الحب والغرام كغيرها من الصدور!

كان الخصي نديم أغا يخلص لمولاه الخدمة ويتفانى في سبيل مرضاته، ويعتقد أن للسلطان عبد الحميد عليه حق الحياة والموت، فهو ولي نعمته، وصاحب الفضل عليه، وكان عبد الحميد يحبه ويخصه بعنايته ويوصي به خادمه ووصيفه جعفر أغا خيرا على الدوام، وكان كلما جلس إلى المائدة ينادي "نديم أغا" ويعهد إليه بخدمته وتقديم الماء إليه، لكن الأمر الذي كان الخصي يعده نعمة تفوق النعم جميعها، وتعطفا تضمحل

أمامه الخيرات والهدايا، هو اعتماد السلطان عليه في حمل أرادته السنية كل ليلة إلى دائرة الحرم..

كان نديم أغا يقوم بتلك المهمة الدقيقة خير قيام دون أن تفارق الابتسامة ثغره الأفلج، فتحيط به الجواري والسراري كلما رأينه مقبلا: هذه تداعبه وتلك تدغدغه، وهو يتنقل بينهن كالديك بين الدجاج، لكنه ديك يفتقر إلى أظهر مزايا الديوك فلا خطر منه عليهن! وبالرغم من ذلك كله، فان الديك المسكين "المهيض الجناح" كان عاشقا مغرما!

***

في إحدى ليالي شتاء سنة ١٨٩٧ وقع نظره للمرة الأولى على الفتاة "زبرجد" الغادة السوداء التي قادها إلى قصر يلدز تاجر الرقيق "عثمان بك الكردي" وكان ثمنها مائة من القطع الذهبية الرنانة!

لم تكن الجواري الزنجيات يساوين في ذلك الوقت ثمنا باهظا كهذا، لذا فإن النخاس تاجر الرقيق أفرام باشا كان يجلب منهن العشرات تلو العشرات، لكن تلك الجارية السوداء التي كانت تحمل اسمها ينطبق على المسمى انطباقا محكما، كانت في تقاطيع وجهها وتناسب أعضاء جسمها ولمعان عينيها ونعومة بشرتها وامتشاق قامتها آية من آيات الجمال الكامل الجذاب، فنالت حظوة في عيني عبد الحميد، وأمر خصيانه بأن يحلوها في حرمه محلاً ممتازاً، وأن يرعوها بعناية دون سواها من النساء.

شعر نديم أغا في بادئ الأمر بنوع من الفخر عندما رأى تلك الزنجية – بنت جلدته – تعامل بين ساكنات الحرم من سود ويبغي معاملة خاصة؛ فصار يعطف عليها ويسابق زملاءه في خدمتها. لكن ذلك العطف ما لبث أن استحال غراماً!

إن الحب يلج القلوب جميعها، رفيعها ووضعيها، أبيضها وأسودها، وعندما يصوب نباله إلى الصدور لا يفرق بين الرجال، ولا يميز بين الأسياد والعبيد، والكاملين والناقصين!

أحب إذن نديم أغا الجارية السوداء وكاشفها بغرامه وجعل يبثها ما في أعماق فؤاده الجريح من لوعة وحسرة، فقابلت الفتاة حبه بالملل، وقصت عليه قصتها وكيف أن النخاسين الجناة أغاروا برجائهم على عشيرتها، هناك في أدغال أفريقية وساقوها سبية أسيرة، بعد أن قتلوا أهلها، وشتتوا شمل قبيلتها، وأحرقوا أكواخ قريتها..

وجدت العبدة الذليلة في نديم أخا في البؤس وشريكا في الشقاء، وتوسمت فيه الأمانة والإخلاص والحب الصادق، فاتخذته لها مؤتمنا ونجيا، وتوثقت بين الاثنين العلاقات إلى حد صار معه نديم أغا يغار عليها من الجميع، الرجال والنساء، ومن سيده ومولاه السلطان نفسه!

دخل يوماً على دائرة الحرم ونادي صديقته وقال لها بصوت متهدج والعبرات تخنقه:

– أمرني البادشاه أن أبلغك اليوم إرادته، فهو يرغب إليك في أن تغتسلي بالطيب والعطور، وأن ترتدي ذلك الثوب الأخضر الذي أمر لك بصنعه منذ أيام، وتوافيه عند المساء!

قال هذا وألقى بنفسه على مقعد وجعل يبكي وينتحب؛ فدنت منه الفتاة وسألته مدهوشة:

– ما الداعي إلى هذه الدموع يا نديم؟ ليست هذه المرة الأولى التي يدعوني السلطان فيها إلى موافاته؟

فنهض الأغا وقد صعد الدم إلى رأسه، وجذبها إليه بقسوة عنف، وضمها إلى صدره. وطبع على ثغرها قبلة. ثم صاح بها وقد تغلب فيه الحيوان على الإنسان!

– لن تذهبي الليلة إليه! أوثر ألف مرة أن يحل بي العقاب، أن أجلد، أن أسجن في غياهب الأقبية، أن يلقى بي في الماء إلى حيتان البوسفور وقد أثقل عنقي بالحديد والرصاص، نعم أوثر أن يرفعوني إلى المشنقة، أن يقتلوني شر قتلة، على أن أتخيلك بعد اليوم في أحضان رجل آخر، يتمتع بجمالك ويعبث بك!

ذعرت الفتاة وتولاها رعب شديد، فحاولت أن تهدئ من حدته وأن تطفي نار ثوراته، لكنها لم تفلح، إذ أن المسكين كان أقرب إلى المجنون منه إلى العاقل! إنه يحب، لكن حبه مريض كسيح.. قام بينه وبين الجارية جدل عنيف: هي تريد أن تصدع لإرادة المولى وهو يحضها

على العصيان! وجاءت النساء على صوت الضوضاء، وأقبل أحد رفاق نديم يستفسر ما الخبر.. ووقعت الفضيحة التي طالما سعت الفتاة زبرجد إلى اجتنابها، أدرك الخصي الآخر أن في الأمر سرا، وأن في استغلال الموقف متعة وفائدة. فتوجه إلى الباب عازما على الخروج لحمل الخبر إلى مولاه السلطان، لكن الجارية فطنت إلى حيلته، فأسرعت إليه وأرادت أن تحول بينه وبين الباب، فاعتقد نديم أنها تغتنم الفرصة للهرب منه والذهاب إلى حيث تدعوها الإرادة السنية، فتناول مسدسه وأطلق منه رصاصة على معشوقته!

لكن يده مرتجفة أخطأت المرمى، فسقط الزنجي الآخر صريعا وقد اخترقت الرصاصة صدره وأصابت منه مقتلا! وعلا الصياح والعويل، فأفاق نديم أغا من سكرة هياجه واتضحت له حقيقة موقفه وفظاعة عمله! وأدرك أنه هالك لا محالة!

كان السلطان عبد الحميد قد نزع عنه ثوبه الأسود ولبس قميصه الأبيض وجلس في سريره، وجعل يصغي إلى قراءة التقارير التي جاء يطلعه عليها رئيس الجواسيس، وتحت وسادته زجاجة يستنشق منها من آن إلى آخر..

الإصغاء إلى التقارير، واستنشاق المنبهات: هذا ما كان يصنعه عبد الحميد في انتظار الحسناء التي اختارها لكي تحمل شعاعا إلى حجرته المظلمة، وتريه ثغرا باسما بعد أن رأى طول نهاره وجوها عابسة!

- أعد قراءة هذه الجملة.

قاطع رئيس الجواسيس وأعاد القراءة: "دخلنا على أحمد بك.. فوجدناه جالسا يداعب قطته وبجانبه زوجته تضاحكه.. فأطلقنا عليه رصاصتين.." لكن الرحل توقف فجأة عن القراءة ونهض مذعورا، ذلك لأن الباب قد فتح بشدة، ودخل الحجرة مارد أسود وهو يصيح والمسدس بيده:

- مر بقتلى يا مولاي فقد خنتك وأذنبت!

وخر الرجل على وجهه وتناول حذاء السلطان وجعل يقبله ويردد: "مر بقتلى يا مولاي.. مر بقتلي!" لكن مولاه كان قد اختفى! ضغط عبد الحميد على زر وراء سريره، ففتح باب سري وخرج منه سلطان البرين وخاقان البحرين، مرتعشا هاربا من وجه ذلك الزنجي الذي اقتحم حجرة نومه شاهرا مسدسه!

قبض على الأغا العاشق، وأصدر المفتي فتواه بوجوب قتله، فعلقوه على المشنقة في أحد الميادين العامة، وفي اليوم التالي أمر السلطان باستجواب النساء للاطلاع على دخائل ذلك السر ومعرفة حقيقة ما جرى في دائرة الحرم، وكيف قتل نديم أغا زميله، لكنهم لا يجدوا في غرفة الفتاة غير جثة هامدة..

رصاص في الحريم

هل هناك قوة خفية، مفرغة في الحجارة الكريمة، تجعلها مجلبة للسعد أو للنحس؟

المنطق يقول: لا. والواقع يجيب: نعم!

في شهر مايو سنة ١٩٤٧، نقلت البرقيات الخارجية خبرا مر به قراء الصحف مر الكرام على لغو الكلام، أما أنا فقد حملني ذلك النبأ على البحث في أكداس من المذكرات والأوراق الخاصة، عن خبر دونته فيها منذ سنوات خلت، وهو موضوع هذه "الصفحة المطوية" التي قد يكون في نشرها ما يحمل القارئ – مثلما حملني أنا – على التفكير، للفائدة أو على الأقل للتسلية!

أما الخبر الذي نقلته البرقيات فهو يقول: أن السيدة الأمريكية التي تملك الجوهرة الثمينة المعروفة باسم "هوب" أو اسم "الماسة الزرقاء" قد ماتت في ظروف غامضة، وأن هذه الماسة قد جلبت الشقاء والمحن لجميع الذين ملكوها منذ أكثر من ثلاثمائة سنة!

ولا شك في أن القراء قد طالعوا أكثر من مرة شيئا أو أشياء عن تلك الماسة الغريبة، المعروفة باسم "هوب" والتي سرد كتاب عديدون تاريخها والحوادث التي وقعت لجميع الذين لمستها أيديهم، وليس هنا

مجال تكرار ما قاله أولئك الكتاب عن تلك الجوهرة المشئومة، ولكن ما أرويه هنا يؤيد ما ذهب إليه الناس فيما يروونه عنها. فالخبر المدون عندي في شهر مارس سنة ١٩٣٠، يمت إلى: "الماسة الزرقاء" بصلة وقد نقلته عن مذكرات "أحمد رشيد بك" التي لا أعرف مصيرها منذ اليوم الذي رحل فيه ذلك الأديب التركي من مصر، إلى اليونان والبلقان، حيث انقطعت أخباره، في عام ١٩٣٠.

كان أحمد رشيد بك من الشبان الترك المثقفين، وكان موظفا عند "أمين باشا ملحمة" السياسي اللبناني الداهية، الذي شغل أرفع المناصب في الدولة العثمانية، وكان من أقرب المقربين إلى السلطان عبد الحميد الثاني. وفي سنة ١٩٠٩ عندما خلع عبد الحميد عن العرش، بعد الانقلاب العثماني المشهور وإعلان الدستور بسنتين، هاجر أحمد رشيد بك، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، فطاف أوروبا، واستقر به المقام في مصر حيث عرفته في سنة ١٩٢٩، وهو كهل في الثامنة والأربعين. وكان شديد الحرص على ملف يحوي مذكراته الخاصة وطائفة كبيرة من الأخبار والنوادر والأسرار، عن العهد الذي شاهده في الآستانة قبيل الانقلاب وخلاله وبعده.

وقد نقلت عن تلك المذكرات بضع صفحات احتفظت بها، وها هي ذي واحدة منها شاءت المصادفات، بعد مرور هذه المدة الطويلة على نقلها، أن تجعل منها صفحة مطوية جديرة بأن تنشر من جديد ولكنني أهملت – وهذا إهمال يؤسف له – نقل التاريخ الذي دونت فيه

هذه الصفحة، غير أن الرواية التي ترويها تدل على أنها دونت بها سنة ١٩٠٠، وهي السنة التي دخل فيها أحمد رشيد في خدمة الباشا، وقبل سنة ١٩٠٧ وهي التي وقع فيها الانقلاب العثماني..

وهذه ترجمة الصفحة من الفرنسية، وهي اللغة التي كتب بها صديقي التركي مذكراته:

"سمعت اليوم قصة غريبة من الباشا وقد رواها أمامي لجماعة من أصدقائه العرب، زاروه في قصره، حيث تناولوا العشاء بدعوة منه، وجلسوا يتسامرون حتى ساعة متأخرة من الليل. والباشا من أكثر رجال هذا العهد اطلاعا على أسرار السرايات السلطانية وما يجري خلف جدرانها، ولكنه لا يتكلم ولا يبوح بشيء من هذه الأسرار إلا في مجالس تضم أصدقاء يثق بهم ويعلم أنهم لن ينقلوا الأحاديث عن لسانه. وقد قال لنا اليوم أن السلطان عبد الحميد قتل إحدى محظياته بيده بأن أطلق عليها الرصاص من مسدسه، فأصابتها ثلاث رصاصات من الأربع التي أطلقها، وكانت الإصابات جميعها في الصدر. أما الرصاصة الرابعة فقد استقرت في مقعد بجوار الحائط المقابل للباب الذي كان السلطان واقفا على عتبته عندما أقدم على هذا العمل. واسم المحظية القتيلة "سلمى" وهي ذات حسن رائع، وجمال فتان، وقامة ممشوقة. تلقاها السلطان هدية من مصر، وقد تكون مصرية وربما لا تكون، يغلب على الظن أنها شركسية من سراري الخديويين.

وتغار نساء القصر جميعا من سلمى، لما لها من حظوة لدى السلطان، ولا شك في أن موتها سيبعث الفرح إلى نفوسهن، فتسعى كل منهن إلى احتلال مكان المحظية الراحلة.. أما السبب الذي من أجله أقدم السلطان على إطلاق الرصاص على تلك المسكينة، بعد أن كان يحلها في قلبه المحل الأول، فلا يعلمه أحد! والذي عرفه المقربون، ورواه لنا الباشا اليوم، أن "سلمى" كانت في انتظار السلطان في حجرة يحتفي فيها بجزء من حلي نسائه، ومجوهراته الخاصة ومجموعة الأحجار الكريمة التي يملكها ويقضي ساعات في ترتيبها وتصفيفها، وقد دخل على محظيته في تلك الحجرة فرآها جالسة على مخدع، وأمامها صندوق صغير من الخشب المطعم بالعاج، وقد تناولت منه جوهرة يقال: أنها أثمن ما في المجموعة من مجوهرات، فما كان من السلطان إلا أن تناول مسدسه من جيبه وأفرغ رصاصة في صدر المرأة، فخرت على المخدع وقد سالت منها الدماء فغمرته ولطخت الجواهر بلونها القاني.

وهذا ما حدث في السراي، وعندما تناقل الأخصاء والمقربون، عن السلطان هذا النبأ، ذكر بعضهم أن الجوهرة التي كانت في يد المحظية هي "الماسة الزرقاء" والتي اشتراها السلطان أخيرا والتي تعد أفخر ماسة عرفت إلى الآن، وقد كلفته مبلغا هائلا من المال، وتلك الماسة الثمينة قد جلبت الشؤم والشقاء على جميع الذين اشتروها، كانوا يلاقون حتفهم على أثر شرائها، ثم يسرعون إلى التخلص منها؟.. فهل جلبت "الماسة الزرقاء" الشؤم والشقاء لسلمى محظية السلطان، لأنها لمستها بيدها؟"

هذا ما دونه أحمد رشيد بك في مذكراته نقلا عن رواية عرفها "الباشوات" في سراي عبد الحميد. وفي سنة ١٩٠٩خلع السلطان عن العرش وأرسل إلى السجن، والأنباء التي تناقلتها البرقيات في سنة ١٩٤٧ تقول أن "الماسة الزرقاء" المعروفة باسم "هوب" وهو اسم أحد الذين كانت في حوزتهم في وقت من الأوقات، كانت شؤما على العظماء الذين اشتروها على مر العصور ومن بينهم السلطان عبد الحميد! فإذا صح ما يروى من أن بعض الأحجار الكريمة فيها قوة خفية أو مودعة في جوفها، تجلب السعد أو النحس، وإذا كانت الماسة المعروفة باسم "هوب" هي ذاتها الماسة المعروفة باسم "الماسة الزرقاء" فإن هذه الجوهرة الثمينة تكون قد جلبت الشر للمحظية الجميلة في قصر عبد الحميد، ثم لعبد الحميد الذي خلعه رجال تركيا الفتاة عن العرش في الوقت الذي كانت الماسة المشؤومة لا تزال في حوزته!

الرؤيا

لعبت المرأة دورها واختفت، وما أكثر الأدوار التي تلعبها النساء في تقويض دعائم الدول!

– أرجو أن تغلق الأبواب يا دولة الوزير وأن تمنع الناس عنها. إن ما أود الإفضاء به إليك ن الخطورة بمكان!

– صدقت يا سيدي ما دام الأمر كذلك. إن للجدران آذانا تسمع وعيونا ترى، ثم أننا في قصر يلديز، ينبغي لنا ألا ننسى ذلك!

ونهض ((أبو الهدى)) من مجلسه مسرعا نحو باب الحجرة، وبعد أن أفهم الحارس أن الدخول غير مباح لأحد، عاد إلى محدثه الضابط النمساوي ((ستيسل)) وقال:

– لقد خلا لنا المكان يا سيدى.. تكلم..

– جئتك في حاجة لا بد لك من قضائها: إنني أحمل إليك رسالة من صاحب الجلالة الإمبراطور، يلح فيها عليك بالقبول ويرضى بالشروط التي تمليها علينا..

– حسن جدا.. إن إمبراطور النمسا صديق قديم، تربطني به أواصر المحبة والإخلاص، ويعز علي أن أرفض له طلبا. ولكن هل قبلتم الثمن الذي وضعته للخدمة التي تطلبونها مني؟

– قبلنا!..

– أين المرأة إذن؟

– في الفندق

– إلي بها، واحمل معك غدا التحويل بالمبلغ على أحد المصارف الإنكليزية..

– سأفعل..

وهكذا تم الاتفاق بين رسول النمساويين وأبي الهدى الصيادي – نديم عبد الحميد الثاني ونجيه ومؤتمنه – على إدخال السيدة "سوفي منثر" في حرم الرجل، والادعاء أمام السلطان أنها الزوجة الجديدة التي وقع عليها اختيار أبي الهدى!.. كانت سوفي مثنر هذه راقصة متهتكة، طافت في بيوت الدعارة وأماكن الفجور في النمسا، تعرض محاسنها للبيع والشراء كما تعرض السلع في الأسواق.. ساعدها الحظ وابتسمت لها الأقدار، فتقربت من رجال البلاط النمساوي الذين توسموا فيها المكر والخداع، فقرروا فيما بينهم إرسالها إلى يلديز للتجسس على السلطان وحاشيته.

وكانت النمسا في ذلك العهد تنافس روسيا في التوسع من ناحية البلقان، وبسط النفوذ على أطراف السلطنة العثمانية، محاولة أن تستميل إليها الجالس على عرش آل عثمان، عبد الحميد الثاني "الرجل المريض" كما كانوا يسمونه، لكن ذلك الرجل المريض كان على جانب عظيم من

الفطنة والذكاء والدهاء، يدرك ما ينصبه له أعداؤه من حبائل ويكيدون له من مكايد، فيلعب بهم جميعا ويضحك عليهم جميعا!..

حاولوا كثيرا أن يسيطروا عليه بالنساء، لكن السلطان لم يكن من أولئك الرجال الذين يستسلمون استسلاما أعمى لنشوة الغرام ويسكرهم الحب.. نعم إنه كان يميل إلى "الجنس اللطيف" ولكنه بالرغم من أن قصوره كانت تغص بالسراري وتعج بالجواري، لم يفقد عقله بسببهن! كانت أعصابه تعبة وقواه منهوكة، وكان إذا ما أراد أن يذوق طعم الراحة يعمد إلى العقاقير والجواهر المنبهة، يقاوم بها عبء السنين ووطأة المرض، لكنه كان ذا اعتقاد راسخ بالخرافات، مولعا إلى حد بعيد باستطلاع الغيب وقراءة الكف، مؤمنا بتكهنات السحرة والمنجمين، دائم الرغبة في محادثة الأرواح وسؤالها عما يكنه له المستقبل في طياته وما يسطره له القدر في صفحاته!

وكان أبو الهدى يذكي في نفس السلطان هذه الرغبة، ويزيد ذلك الاعتقاد رسوخا، ويثبت له بمختلف البراهين والأساليب أن للأحلام علاقة بالحياة، وأن أرواح الأبرار والأشرار تحوم ليلا في مساكن الأحياء من الناس، وتفضي إليهم بما يرغبون في معرفته من ماض وحاضر آت..

وذهب أبو الهدى إلى أبعد من ذلك، فجعل السلطان يصنع بيديه تماثيل بعض من أعدائه ورسومهم، لكي يستحضر له الأرواح في دجى الليل، ويقدم لها تلك الرسوم والتماثيل فتنتقم من أصحابها في النهار

وتثأر للسلطان منهم.. ذلك هو الرجل الذي وقع عليه اختبار النمساويين لكي يكون لهم عونا على عبد الحميد! ولما كانت المرأة سوفي مثنر من اللواتي نبغن في تفسير الأحلام وقراءة الكف، فقد اختارها القوم أيضا لكي تعاون نديم السلطان في مهمته، وكان يؤهلها لذلك على الخصوص إتقانها اللغة التركية ووقوفها على دخائل القصور لأنها كانت تتردد عليها وتقيم بين نسائها.. تم الاتفاق إذن بين الضابط ستيسل وأبي الهدى..

جلس أبو الهدى يوما كعادته، يقص على السلطان حوادث الأمس، وينقل إليه تقارير الزبانية والجواسيس، وبعد أن انتهى من هذه المهمة اليومية، ولفق لسيده ما شاء من الأوهام والوشايات، سكت هنيهة ثم استطرد قائلا:

– والآن يا مولاي دعني أفضي إليك بمفاجأة طريفة أعددتها إليك يا سيدي وولي نعمتي منذ أسابيع!

فرفع السلطان رأسه وبرقت عيناه وسأل:

– أي مفاجأة هذه يا صديقي الأمين؟

– لقد تزوجت منذ أكثر من شهر امرأة شركسية هي على اتصال دائم بعالم الأرواح، تستحضر منها من تشاء وتحادث من تشاء، وقد جعلتها تقوم على مسمع ومرأى مني بتجارب أدهشتني كما ستدهشك يا مولاي.. فهل تسمح أن آتيك بها؟

– أجل.. إننا الآن في أشد الحاجة إلى معرفة ما يخبئه لنا الغد. أريد أن أعلم هل كانت التدابير التي اتخذناها كافية للقضاء على الحركة الثورية التي يقوم بها رجال تركيا الفتاة؟ إنني لا أثق كثيرا بذلك العهد الذي قطعوه على أنفسهم باحترام شخصي وعدم الاسترسال في دس الدسائس ونشر الدعوة التي يعملون لها. ينبغي أن أضربهم الضربة القاضية قبل أن يتمكنوا من استمالة الجيش إليهم، إلي بالمرأة في الحال

ومثلت سوفي مثنر – التي أطلق عليها أبو الهدى اسم "زينب التركية" – في حضرة سلطان البرين وخاقان البحرين! وظلت أياما تفسر له الأحلام وتستطلع الغيب وتستحضر الأرواح وكانت الأحلام كلها تنبئ بالفرح العاجل، على حين أن الغيب ينحسر عن حوادث جليلة جميعها في مصلحة العرش، والأرواح تبشر السلطان بالنصر القريب والفوز المبين!

ومرت الأيام، والثائرون يعدون عدتهم في الخفاء، وينشرون دعوتهم ومبادئهم في طول السلطنة وعرضها، داعين إلى هدم معقل الظلم والاستبداد، ورفع لواء الرقي والحرية! والسلطان غافل عما يجري وراء أسوار قصره وجاهل بالحفرة التي يحفرها له خصومه.

لكن أبا الهدى أدرك أن الساعة العصيبة قد دنت، أن ذلك البريق الذي يلمع في الأفق سيتلوه هزيم الرعد وقصف الصاعقة. أسرع إلى

زوجته الزائفة وأطلعها على مخاوفه، وطلب إليها أن تعمد إلى آخر سهم في جعبتها فترشفه، على أمل أن يصيب الهدف ويغنم الاثنان ما يرغبان فيه: التجاء السلطان إلى دولة النمسا ووضع نفسه تحت حمايتها..

وفى الثالث من شهر أبريل سنة ١٩٠٨ قبيل الظهر، دخل أبو الهدى الصيادي على سيده مصطحبا معه زوجته، وقصت الزوجة على السلطان الرؤيا التي هبطت عليها في الليلة السابقة:

- رأيت يا صاحب الجلالة نسرين قاتمين يحلقان في الفضاء، هبط واحد منهما واستقر على قبة القصر اليمنى، وتبعه الآخر واستقر على القبة اليسرى، ثم ضم الاثنان أجنحتهما وأرسلا في الفضاء صيحات مزعجة. حين ذاك رأيتك خارجا من القصر وقد ألقيت على كتفيك الطيلسان الأرجواني، وبسط النسران أجنحتهما من جديد وطارا إليك، وبعد أن رفرفا لحظة فوق رأسك أخذاك بين الأجنحة التي انضمت عليك كما تنضم أذرع الأمهات على البنين. لقد عرفت النسرين يا مولاي: هما النسران النمساويان!

سكت عبد الحميد، واكفهر وجهه، ثم سأل:

- وما معنى هذه الرؤيا؟

- أنه يجب عليك يا صاحب الجلالة أن تطلب من صديقك الإمبراطور فرانز جوزيف النمساوي أن يحمي شخصك المحبوب، ويمنع أعداءك الثائرين عليك من تنفيذ خطتهم والاعتداء على عرشك!

وفى اليوم الرابع من ذلك الشهر، قالت المرأة للسلطان أن الرؤيا لازمتها طول ليلها، وفي اليوم الخامس أيضا، وفى اليوم السادس، والسابع كذلك.. وفى اليوم الثامن نهض السلطان عبد الحميد من نومه مذعورا وأرسل في طلب أبي الهدى وزوجته.. ولما مثلا بين يديه صاح بصوت متهدج:

– الرؤيا! الرؤيا! لقد رأيت أيضا النسرين وأخذاني بين أجنحتهما كما فعلا أمامك يا امرأة

– الأرواح الساهرة عليك يا مولاي إرادتها..

– إذن.. لنكتب إلى صديقي الإمبراطور..

هكذا أثرت النمساوية في مخيلة السلطان، فجعلته يرى في نومه الحلم الذي ادعت أنه عاودها أربع مرات، فاعتقد أن الأرواح التي تعطف عليه وتحرس حياته تشير عليه بالالتجاء إلى النمسا وطلب حمايتها.. فتناول ورقة وسطر عليها بيده برقية إلى الإمبراطور فرانز جوزيف، وظل يتردد يوما كاملا قبل إرسالها.. لكنه في اليوم العاشر من شهر أبريل، قرر أن يسلمها إلى مكتب البرق بعد أن وضعها بالأرقام المتفق عليه.. وأرسلت البرقية، وصادرها الموظفون المنتمون إلى حزب تركيا الفتاة وحلوا أرقامها وفهموا معناها، وحملوها إلى أنور باشا ونيازي بك وصحبهما، وحلت الكارثة بالسلطان وأتباعه!

فقد كان المتآمرون اكتفوا بنتائج الثورة الأولى في سنة ١٩٠٧ وقبلوا أن يظل عبد الحميد جالسا على عرش آل عثمان، ولكن تلك البرقية أزاحت النقاب عن مقاصد السلطان ونياته، فخاف زعماء الثورة على أنفسهم وعلى الدستور الذي انتزعوا الموافقة عليه من عبد الحميد انتزاعا، فقرروا إسقاط الطاغية والتخلص منه!

وفى اليوم الحادي عشر من شهر أبريل سنة ١٩٠٨ كانت ثورة الجيش العثماني في الآستانة! وفى السابع والعشرين من ذلك الشهر، دخل الجيش قصور يلديز، وأرغم عبد الحميد على النزول عن العرش!

أما سوفي مثنر الشركسية الكاذبة والدجالة الجاسوسة فقد توارت عن الأنظار منذ ذلك اليوم واختفت آثارها، ولم يعلم أحد ما حل بها، وقد ظل أبو الهدى نفسه يجهل مقرها، فمات قبل أن يصل عليه نبأ عن المرأة التي كانت شريكته في المؤامرة على السلطان وتقويض عرش بنى عثمان!

أما السلطان عبد الحميد الثاني ابن السلطان عبد المجيد، فقد سجن بعد خلعه ومات في السجن سنة ١٩١٨، وهو في السادسة والسبعين من العمر، وكان قد ارتقى العرش في سنة ١٨٧٦.

بهرام أغا الجعفري

بشر القاتل بالقتل، والظالم بالعقاب!

كانت تتولى إدارة الحرم السلطاني بالآستانة هيئة من الأغوات اسمها دائرة "أغوات دار السعادة" أسسها السلطان سليمان القانوني. وكان رئيس أولئك الأغوات يحمل لقب "بيوك أغا" ومعناه "الأغا الأكبر" ومركزه بين رجال القصر رفيع جدا، إذ أنه يجئ بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام!

وكان "بيوك أغا" في عهد السلطان عبد الحميد، وفي الوقت الذي وقعت فيه حوادث هذه القصة، يدعي بهرام أغا الجعفري، وكان رئيس أغوات الأميرة جميلة سلطان، أخت عبد الحميد، وكانت تحبه وتثق به، وهي التي طلبت إلى أخيها السلطان أن يعين "بيوك أغا" فأجابها إلى طلبها ورفع بهرام الجعفري إلى ذلك المقام الرفيع. فصار الأغا اللعين – وهو ماكر دساس متزلف – يتمتع بنفوذ هائل لا يضارعه في القصر السلطاني نفوذ. وأصبح رضا السلطان موقوف على رضاه. وجعل أصحاب الغابات وأرباب المصالح يقصدون إلى ذلك الخصي الأسود لقضاء مصالحهم وغاياتهم، ورأى المقربون من القصر ذلك الرجل الناقص يسير أحيانا شئون السلطنة على حسب رغباته وأهوائه ويعزل من هذا المنصب من يريد، ويعين في تلك الوظيفة من يشاء..

واتسع سلطانه إلى حد أن السلطان نفسه أوجس خيفة وداخله الحسد منه؛ فكاشف أخته بالأمر، وأفضى إليها برغبته في نقل بهرام أغا من تلك الوظيفة إلى أخرى أقل منها شأنا، فأوعزت إليه بأن يضع الأغا على رأس دائرة الحرم السلطاني، لكي يدير حركة التجسس على النساء، ويراقب سلوكهن وحركاتهن وسكناتهن.

ومنذ ذلك الوقت، جعل بهرام أغا يرفع إلى مولاه التقارير اليومية عن كل صغيرة وكبيرة تجري في داخل "الحرملك" ليس فقط في قصور السلطان، بل أيضا في قصور أمراء الأسرة المالكة جميعا، وذلك بوساطة رؤساء الأغوات، الذين كان يغدق عليهم بهرام النعم والعطايا، مقابل أن يوافوه بأسرار القصور.

كان يقيم بالآستانة، حوالي سنة ١٩٠٥، تاجر شاب من بلاد الكرج يدعى محمد سليمان، يعيش مع أخته "بهيجة" وهي صبية بارعة الجمال، فاتكة اللحظ، طويلة القامة، لم تبلغ بعد العشرين من العمر. تلك الأخت التي كان الشاب التاجر يحبها حبا جما، لأنهما عاشا معا يتيمين منذ عهد الطفولة، كتب لها الشفاء من حيث لا تدري؛ فقد اختفت ذات يوم من البيت، وعبثا بحث عنها أخوها شهورا طوالا.. وأخيرا، علم أنها تقيم في قصر السلطان، وأن زبانيته خطفوها من إحدى الحدائق على ضفاف البوسفور، بإرشاد بهرام أغا اللعين!

وفار فائر الشاب! أخته، الحرة الطاهرة المحبوبة، تصبح بين صباح ومساء جارية في القصر السلطاني، يعبث بعفافها ذلك النمر البشري، ذلك "العنكبوت الأسود" كما كانت تسميه نساء القصر؟

هجر الرقاد جفونه، وحرم على نفسه الراحة ما لم ينقد الفتاة المسكينة من الجحيم الذي ساقوها إليه، فيعيدها إلى الهواء الطلق، إلى الحياة الحرة، ولو ملطخة بما لحقها من عار في تلك البؤرة التي يسمونها حرملك السلطان!

وبلغ محمد سليمان مقصده ومرامه، بعد جهد وعناء؛ فقد تمكن، بمساعدة الأغوات وبفضل ما بذله من مال، من إخراج أخته بهيجة من قصر السلطان، إلى قصر أمير من الأسرة المالكة، رضي بأن شملها بحمايته، بعد أن تعهد له أخوها بالنزول عن دين كان له في ذمة ذلك الأمير! لكن المسكينة أخرجت من حبسها لكي تقذف بها الأقدار إلى حتفها وتواريها في قبرها، فقد بلغ السلطان خبر فرارها، فعهد إلى بهرام أغا رئيس الأغوات في أن يبحث عن المرأة التي يعود إليه الفضل في جلبها إلى القصر ويعيدها إليه حية أو ميتة، وإلا أنزل به العقاب الشديد!

خاف الأغا على حياته، وأطلق ثعالبه وصنائعه في أثر الطريدة الشاردة، ولم يمض على ذلك اليوم أسبوع واحد حتى كان أمر بهيجة قد انفضح وسرها قد انكشف! وأعيدت بهيجة إلى قصر السلطان وقادها بهرام إلى القاعة المعروفة بحمام السلاطين! وذلك الحمام شيده السلطان سليمان القانوني من المرمر الإيطالي الأبيض والوردي، وكان

الجالسون على عرش آل عثمان يختلفون إليه للاستحمام بين السراري والجواري منشدات راقصات!

هناك وافاها السلطان عبد الحميد الثاني، الذي غادر قاعة الاستقبال ومنصة العرش، وجاء إلى ذلك الحمام لكي يرى بعينيه مقتل امرأة أراد استعبادها فتمردت على إرادته! هناك، أمام ذلك الرجل الغريب الأطوار انقض العبيد على بهيجة الضعيفة، وأخمدوا أنفاسها خنقا بأصابعهم الغليظة وتركوها بين يدي سيدهم ومولاهم جثة هامدة!

هرب محمد سليمان، ولجأ إلى مصر حيث تعاطى التجارة، ومات فيها بعد الحرب العالمية التي اشتركت فيها الدولة العثمانية في سنة ١٩١٤، وخرجت منها مغلوبة مفككة منهارة!

مات، ولكنه عرف، قبل موته، أن بهرام أغا الجعفري، الذي كان سبب شقائه وشقاء أخته وخنقها في حمام السلاطين، قد قتل أيضا مخنوقا بيد جارية شهدت طغيانه وعانت من قسوته في عهد عبد الحميد واسترجعت حريتها بعد خلع السلطان الأحمر، والتقت مصادفة ببهرام أغا الجعفري الذي التحق بخدمة السلطان محمد الخامس، وكان يبتاع من السوق بعض السلع، فوثبت عليه المرأة وخنقته!

ابن الشركسية

كان الأبناء المجهولون في قصور السلاطين أكثر من الأبناء المعروفين!

طال الحديث وتشعب، بين الأمير العثماني السابق وبيني، على ظهر الباخرة التي كانت تقلنا إلى أوروبا، عن الأسرة العثمانية التي تشتت أفرادها في الشرق والغرب، بعد إلغاء الخلافة وقيام النظام الجمهوري في تركيا على أنقاص السلطنة. وتناول حديثنا على الخصوص عدد أفراد الأسرة الباقين على قيد الحياة فقال محدثي:

– كان الأبناء المجهولون، في قصور السلاطين من آل عثمان، أكثر من الأبناء المعروفين

ثم أردف قائلا:

تحضرني الآن قصة واحد من أولئك "الأمراء" المجهولين فاسمعها كما أعرفها، وها هي ذي القصة التي رواها الأمير المعروف، عن الأمير المجهول ابن الشركسية.. في قصر "أورته كوي" بالآستانة، خرج السلطان محمد السادس وحيد الدين إلى شرفة تطل على الحدائق الغناء، وتنفس الصعداء بعد أن ضاق صدره في داخل ذلك القصر الذي استحال بالنسبة إليه سجنا ممقوتا كان ذلك في سنة ١٩٢٢ الوطنيون

الأتراك، بقيادة مصطفى كمال باشا، يبتسم لهم الحظ، وتعقد فوق رءوسهم ألوية النصر في ميادين القتال، وبعد أن أجلوا العدو المحتل عن بلادهم، راحوا ينادون بمبادئ جديدة، ويدعون الشعب إلى اعتناقها.. والسلطان قلق مضطرب تساوره الهواجس وتكتنفه الهموم يخاف على السلطنة أن تفلت منه.. لقد هاجر رعيته بالعداء، ونصر الغريب على أبناء قومه، وكان سلاحا للأجنبي على الأحرار المجاهدين والأبطال والمحاربين الذين أبت نفوسهم الضيم فامتشقوا الحسام وأقسموا ألا يعيدوه إلى غمده إلا إذا غادرت إلى تركيا حريتها وحقوقها

وحيد الدين يمثل الرجعية والخمول والقنوط والاستسلام ومصطفى كمال يمثل النهضة والحزم والأمل والآباء جلس السلطان وقد شعر بأن عرشه يتهدم، وأخذ رأسه بين يديه وأطلق العنان لأفكاره تسبح في عالم المخاوف والأحلام المزعجة، وبينما هو على هذه الحال إذا بصوت رخيم يطرق أذنه، بل يداعبها كالنسيم، فرفع السلطان رأسه مجفلا وقال: "من هنا؟"

أنا يا مولاي رأيتك وحيدا حزينا كئيبا فجئت أطرح نفسي على قدميك وأبعث في نفسك إذا استطعت بارقة أمل ورجاء، فبسط السلطان يده للمرأة الواقفة أمامه، وأخذ رأسها بين يديه وطبع على جبينها قبلة ممزوجة بالعبرات هي "إقبال" الشركسية أو بالأحرى "إقبال" التي تدعي أنها شركسية، ولكنها في الحقيقة يونانية من بنات الجبال، قادها أحد تجار الرقيق إلى قصور السلاطين، وأدخلت كغيرها في حرم محمد

خامس وظلت تقيم فيه، فشاهدت الانقلابات التي توالت على تركيا، وعطفت على وحيد الدين الذي نبذه الجميع ما عداها، وأضمروا له الشر على حين كانت ولا تزال تضمر له الخير ذلك لأنه أنقذ ولدها من الموت كان ذلك الولد في الثامنة من عمره، وحدث ذات يوم أن فاجأ السلطان أحد ضباط الحرس يعتدي عليه فضربه الولد بقبضة يده، ويقبض الضابط على عنقه ويهم بخنقه لو لم يفاجئه وحيد الدين وينقذ الفريسة من أيدي الجلاد وكان جميع من في القصر يعتقدون أن ذلك الولد ابن عامل من عمال الحدائق ويجهلون انتسابه إلى إقبال الشركسية، لكنها أفشت الحقيقة للسلطان بعد أن أنقذ ولدها، غير أنها لم تبح له إلا بما أردت أن تبوح به فأخذها تحت رعايته وصارت منذ ذلك الوقت تلازمه وتتفانى في خدمته وأحبها وحيد الدين، فكانت شعاعا يضئ ظلام وحدته وعزلته.. جاءته ذلك اليوم وهي على غير عادتها قلقة مضطربة ففطن السلطان إلى ذلك وطلب منها أن تبوح له بمكنونات صدرها وأن تطلعه على ما أخفت من أسرار حياتها فقالت إقبال:

- ما جئت إليك الآن يا مولاي إلا لكي أبوح لك بكل شيء ولكن على شرط واحد.. لا بد من إجابتي إليه أتعدني بذلك؟

- أجل أعدك وهذا الشرط هو أن تدعني أرحل وولدي من الآستانة ولن يسمع وأحد شيئا عنا بعد اليوم

فانتفض وحيد الدين وقال:

- تريدين أن ترحلي وأنت الشخص الوحيد الذي أرتاح إلى مجالسته في هذا القصر حيث يحيط بي الأعداء من كل جانب لا بد من ذلك يا مولاي: اسمع قصتي واحكم

وبعد سكوت قصير مسحت فيه إقبال دمعة نفرت من عينها واستعادت فيه تذكارات ماضية مؤلمة، جعلت تقص على السلطان مأساة حياتها قالت:

"لا أطيل عليك الشرح فأسرد لك التفاصيل عن نشأتي في بلاد اليونان أي في بلادي لكنني أكتفى بإطلاعك على ما حدث لي بعد أن وقع على اختيار السلطان محمد الخامس، لكي أكون بين نسائه.. إنك أدرى مني بعادات القصور وتقاليد آل عثمان فقد حرم على نساء الحريم أن يلدن أبناء إلا إذا كن يحملن لقب سلطانات القصر، ولم أكن أحمل ذلك اللقب لان عدد من تخولهن التقاليد حمله كان مستوفيا.. حدث في مرة أن أقيمت في هذا القصر - قصر أورته كوي - مأدبة فاخرة دعي إليها عدد عظيم من الناس ودعيت إلى الرقص والغناء فلبيت الأمر ورقصت وغنيت وفي تلك المأدبة علم السلطان محمد الخامس أن الحرب العظمى قد اندلعت نيرانها بين الدول إذ أنه كان يجهل كل ما يجرى خارج قصره وبعد انصراف المدعوين استبقاني السلطان وقضيت ليلتي في مخدعه وكان ثملا ومرت الأيام والأسابيع والشهور وكنت قد

شعرت بأنني حامل وخفت على الجنين أن تناله يد الأذى؛ فأخفيت الأمر عن الجميع لكن التستر كان صعبا فاضطررت في النهاية أن أبوح بسري، وأصدر السلطان أمره بأن يقتل المولود في الحال.. ذعرت لتلك الإرادة وجعلت أفكر في طريقة أنقذ بها الطفل المسكين البريء فاتفقت مع القابلة وحملت ولدي إلى مكان أمين أخفيته فيه.. وظل السلطان معتقدا أن الطفل قد مات، أما أنا فكنت أرى ولدي سراً في بادئ الأمر عند البستاني الذي عهدنا إليه تربيته والسهر عليه، حتى بلغ الثالثة من عمره فادعى البستاني أنه ولده، وصرت أراه جهراً وبلا خوف؛ فذلك الصبي يا مولاي الذي أنقذته القابلة من الهلاك منذ ثمانية أعوام، والذي أنقذته أنت من يد الضابط الذي أراد به سوءا منذ بضعة أشهر هو ابن أخيك السلطان محمد الخامس، وفي عروقه تجري دماء بني عثمان، وإذا كنت أرجو منك أن تدعني أرحل بولدي فليس ذلك لأنني أرغب في الحرية، فسيان عندي البقاء أو الرحيل، بل من أجل الولد أطلب ذلك لكي أنقذ من الهلاك أميرا عثمانياً مجهولاً "

سكتت المرأة بعد أن قصت على السلطان قصتها؛ فأشفق وحيد الدين عليها، وقال بصوت متهدج:

– إقبال، إنني أشعر بدنو أجل السلطنة، فإنقاذ أمير من أمراء الأسرة المالكة واجب محتم، كان السلطان بالأمس يفتك بأفراد أسرته لكي يأمن شرهم أما اليوم فقد تغيرت الأحوال وتبدلت الظروف: سترحلين بولدك يا إقبال

وفي اليوم التالي غادرت إقبال الشركسية قصر "أورته كوي" ورحلت عن الآستانة بجواز سفر يحمل اسم "مدام ابيفانيا كريستودولو، وابنها الفتريس" وبعد أسبوع واحد خلع مصطفى كمال السلطان محمد السادس وحيد الدين وأجلس الأمير عبد المجيد على عرش آل عثمان المتزعزع، ثم كان ما كان من إلغاء الخلافة والسلطنة، وطرد عبد المجيد وقيام الجمهورية على أنقاض الماضي..

وفي شهر مايو سنة ١٩٢٦ ورد إلى الخليفة عبد المجيد المنفي كتاب من روسيا ففضه وقرأ فيه: "مات الأمير سليم ابن السلطان محمد الخامس قبل أن يبلغ الحادية عشر من عمره" والدته الحزينة، ولم يعلم أحد ماذا حل بإقبال الشركسية!!

الفهرس